لماذا

رواية

محمود قاسم

الكتاب: لماذا!

الكاتب: محمود قاسم

الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: 35825293 - 35867576 - 35867575
فاكس: 35878373

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

قاسم ، محمود
لماذا ؟ / محمود قاسم
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
.. ص، .. سم.
الترقيم الدولى: **978 -977 -446 – 463 – 2**
أ – العنوان رقم الإيداع : **13445 / 2017**

لماذا!

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

لا أعرف لماذا اشتريت بالأمس هذه القطعة من الشيكولاتة.. أمسكتها بيدي وأخذت أتأملها، لا أعرف في ماذا انحصرت أفكاري.. في المساء تذكرت أنني لم أشتر شيكولاتة منذ وقت طويل.. تذكرت أبي حين كان يشتريها لي كلما عاد من العمل، أو كلما خرجت معه..

أشتريت اليوم قطعة أخرى ألتهمتها وأنا سائر – أيضاً – في الطريق.. سررت وأنا أشعر أنني اجتذبت انتباه الناس..

... ...

لا يزال موضوع الشيكولاتة يشغلني

... ...

أشتريت اليوم قطعة أخرى.. انتابتني الرغبة أن أسأل كل من أقابله، أتُحب الشيكولاتة؟.. أحسست أنني سخيف وأنهم سيسخرون مني.. خفت ألا يفهموا قصدي..

في المساء كانت القطعة في جيبي حين قابلت خطيبتي، بعد أن رويت لها ما حدث ضحكت حتى خلت أنها تسخر مني، أحسست بالضيق.. قالت:

- أنت غريب.. ألا تفكر سوى في قطعة الشيكولاتة؟

تنهدت بارتياح وقلت:

- أتتصورين أن أخلع قميصي وأعلقه فوق كتفي لأسأل الناس رأيهم فيه؟

قالت:

- تستطيع أن تنجح في تطبيق فكرتك، لكن الشيكولاتة ستكون مبعثاً للسخرية.
- أعرف هذا ..
- ما رأيك لو أخذتني؟
- لن آخذك في جيبي وأخرجك بين الحين والآخر لأفرج الناس عليك؟
- لا أقصد ذلك، وإنما أن تسأل الناس عن رأيهم في صورتي..
- أنت مغرورة..

قالت وهي لا تزال تبتسم:

- لا أقصد.. على كل فالفكرة أكثر واقعية من الشيكولاتة..
- الصورة في يدي مثل قطعة الشيكولاتة.. لم أسأل نفسي حتى الآن لماذا افعل هذا.؟

....

تعرفت اليوم على ثلاثة أشخاص، حادثت كل منهم على حدة.. استحسن اثنان الفكرة أما الثالث فقال:

- لا أفهم شيئاً

أعطيت كل من الشخصين صورة ليقول لي رأيه

... ...

قبل أن أقابل شخصي الأمس في مكانين مختلفين تعرفت في الترام على شخص ثالث أعطيته صورة.. لا أعرف لماذا لم أشعر بالخجل وأنا أقدم صورة خطيبتي لأناس أعرفهم لتوي.. قال أحد الشخصين اللذين قابلتهما بالأمس أنها حلوة.. قال الآخر"جميلة".. ابتسمت وقلت:

- لا أقصد أن تخبرني بذلك، أريد أن أعرف بماذا تذكرك الصورة عند رؤيتها.

قال الأول كلاماً كثيراً.. اقتنعت في النهاية أن من الأفضل أن يكتب كل منهما رأيه كاملا

... .

بلغ الأشخاص الذين أعطيتهم صوراً ليعبروا كتابة عن انطباعهم إلى ثمانية.. يبدو أنني سأكتفي بهذا العدد.. اتفقت مع كل منهم أن أستلم كتابته خلال أسبوعين..

...   .

لا زلت أنتظر..

دخل في الأمر أربعة آخرون.. أصبح المجموع اثنى عشر شخصاً.. سلمني أحد الثمانية تقريره المكتوب.

...   ...

أستلمت حتى الآن أربعة تقارير.. اعتذر لي الخامس بأنه كان على سفر ولم يستطع تكملة الكتابة.. قبلت عذره بروح طيبة بعد أن أخذت منه الصورة والورق.

...   ...

سألت عن اثنين في مترليهما.. استلمت واحدا بينما لم أجد الثاني..

....

استلمت إلى اليوم ستة تقارير.. بدأ الآخرون يماطلونني.. مزقت حتى اليوم أربع أوراق واستلمت أربع "صور".. لم يتبق سوى فردين.. لعنت نفسي وأنا عائد إلى المترل، ماذا أدخلني في أمر سخيف كهذا..؟

...   .

استلمت اليوم تقريراً واحداً.. اعتذر الشخص الآخر.. أخذت منه الورق والصورة، لديَّ الآن سبعة تقارير.. في المساء أخذتهم معي عندما قابلت خطيبتي.. قالت:

- نتيجة طيبة.. اقرأهم وسوف أطلبهم منك فيما بعد.. أليس من حقي؟
- ألست صاحبة الصورة والفكرة؟
- وافقت..

... ...

لا تزال التقارير في درج مكتبي.. لا أعرف لماذا لم أقرأ سطراً واحداً حتى الآن.. الوقت يسرقني.. لا أعرف هل فقدت حماسي لقراءتها أم أن الوقت لم يتسع..؟

... ...

قرأت بضعة أسطر من أحد التقارير.. قررت إما أن أقرأها أو أتخلص منها.

جلست في غرفتي وأخرجت التقارير من المكتب.. رفعتهم أمامي وبدأت أتصفحهم.. كاتبو التقارير ليسوا في سن واحد.. أحدهم في الستين.. والآخر في الأربعين.. الثالث في العاشرة..

رتبت التقارير حسب السن.. بدأت بقراءة تقرير طفل العاشرة وانتهيت بتقرير شيخ السبعين.

التقرير الأول

أنا عندي بالضبط عشر سنين.. مش عارف إن كان بالضبط أم لا.. الصورة دي بتفكرني بحاجات كثيرة، ليست هناك إنسانة أقرب إلى الصورة دي من أبلتي..

امبارح اعطتني خمسين من خمسين في المواد الاجتماعية.. هي عارفة كويس إن أنا أستاهل.. ربما أستحق أقل بدرجة أو بنصف، لكن هي عارفة إن أنا أستاهل كل الخمسين درجة..

في أول السنة كنت أخيب تلميذ في الفصل.. كراساتي كلها مزوقة باللون الأحمر.. الحساب صفر.. الإملاء صفر.. العلوم صفر..

وكنت إذا أخذت واحداً أو اثنين أعتقد أن هذا سحراً مبيناً.. ولن أنسى عندما فتش أبي في حقيبتي ورأى تلك الأصفار.. لن أنسى العلقة السخنة التي ألهبت جلدي.. لذا ففي اليوم التالي جئت له بكراسي وأنا أقول:

- شوف، ثلاثة على عشرة..

قلتها بلهجة الواثق بنفسه، كنت أعتقد أن هذه الدرجة هي أفضل الدرجات التي يمكن أن أحصل عليها، ضحك أبي وربت على كتفي..

في اليوم التالي دخل حضرة الناظر فصلنا وقال:

- حنقسمكم فصلين.. فصل للتلامذة الخايبين وفصل للشطار.

كنت حاسس أن الأجازة هي الحاجة الوحيدة اللي ممكن الواحد يستريح فيها.. أما المدرسة فهي مثل السجن.. كثيراً ما ضربني الناظر.. مش عارف ليه إنما بأشوفه في أي مكان خارج المدرسة أجري في الحارات حتى لا يراني.. لا أعرف هل هو خوف، أم عدم استلطاف.. أم خشية أن يسألني عن عاصمة الجزائر..؟

كان الناظر يقوم بالتدريس بجانب عمله، أحسست بالانبساط لأنني سأنتقل إلى فصل الخايبين لأن الناظر لا يدرس فيه.. لذا قعدت على أعصابي أنتظر النقل.. لكن الملعون لم يدخل.. مش قلت إنسان سخيف، فجأة دخلت علينا أبلة.. أيوه.. إنها أبلة جديدة في المدرسة.. وقفنا لها احتراماً وقالت:

- صباح الخير..

شئ غريب، لقد اعتدنا على صباح العصايا والأسئلة البايخة.. قالت:

- أنا أبلة الحساب والعربي والمواد الاجتماعية.

كدت أن أضحك فلم أتعود إلا على سيادة الناظر كمدرس.. كثيراً ما سمعت من زملائي إن الأبلات بتضرب أكتر من الأساتذة، قعدت الأبلة ترغي.. الواحد لازم يذاكر علشان يبقى مهندس أو دكتور.. وإن الواحد يجب أن يذاكر علشان أهله مش حينفعوه.. فأبي على استعداد أن يبيع الدنيا كلها من أجلي.

بعد الكثير من الكلام الفارغ سألتنا:

- إيه رأيكم نعمل مراجعة؟

انشغلت بإخراج كراس ونزعت منه ورقة.. أخذت أصنع منها صاروخاً.. بعد قليل سمعتها تقول:

- لكن ليه الناس دي مش بتجاوب؟

رفعت نظرى إليها.. تنظر ناحيتنا

ارتعدت وأخفيت الصاروخ.. قال تلميذ:

- أغلبهم بُلدة يا أبلة..

أحسست بالضيق، فهذه الكلمة نصف بها أنفسنا ولا نحب أن يصفنا بها شخص آخر.. قالت الأبلة:

- يعني إيه ما يعرفوش حاجة؟

كدت أن أقول لها أنني أجدع تلميذ بليد في الفصل وأنني أستطيع أن أصنع صواريخ أحسن من أي واحد فيهم.. لكنني كُنت

أرتعد، فأنا قاعد على الصواريخ، وكما قلت إن الأبلاوات بتضرب بالمساطر.. ظلتّ تنظر ناحيتنا وهي تبتسم، أشارت بمسطرة في يدها نحوي، وقالت:

- أنت!!

لا أعرف كيف وقفت.. أحسست بالصواريخ وهي تقع فوق الأرض.. وجهي أكثر احمراراً من البطيخ.. قالت:

- هو أنت بليد صحيح؟

زادت الدماء في وجهي.. سألت:

- ليه ما بترفعش إيدك زي زملائك؟

أحسست بشئ بارد يسقط من عيني.. سمعت زملائي يضحكون، أخفضت وجهي قليلا، سمعتها تقول:

- عيب تبكي وأنت رجل.. اجلس.

جلست.. لم أفكر في الصواريخ.. ولا في الأبلة.. كيف يقولون عني بليداً وأنا الذي حصلت علي ثلاثة.. ثلاثة من عشرة..

رحت أمشي وحدي بعد أن خرجت من المدرسة.. في المساء بعد أن صحوت من النوم قلت لأخي الكبير أنني أريد أن يشرح لي الفعل والفاعل.. وجدت نفسي مبسوطاً جداً عندما كان يشرح لي أشياء بدت

واضحة.. عندما انتهى من الشرح كانت الساعة بتدق اتناشر ونصف مساء.. لا أعرف لماذا يقولون في المدرسة عن هذا الليل إنه "صباح".. ناس مجانين..

في اليوم التالي أحسست أنني أملك هذه الدنيا لأني أعرف الفعل والفاعل والمفعول، وأن "دخل التلميذ الفصل" يعرب على أن "دخل" فعل ماضي منصوب بالفتحة، وأن التلميذ مفعول به مرفوع بالضمة، "والفصل" فاعل منصوب بالفتحة، مش كده والا إيه؟

دخل الناظر في الحصة الثانية وقال:

- صباح الخير ..

اندهشنا.. فهو لم يقلها أبداً من قبل.. يمكن لأن الأبلة جديدة، وعايز يوريها أنه رجل مهذب.. قال وهو يقف بجانبها:

- طبعا انتم عارفين أن أبلتكم حتديكم عربي وحساب.. أما أنا فبإذن الله حاديكم علوم.

قال في آخر كلامه:

- احنا اتفقنا إننا ننقل بعضكم الفصل الثاني ونجيب التلامذة الجدعان هنا..

لا أعرف لماذا تغيرت رغبتي في أن ينقلوني إلى الفصل الثاني.. فقد أصبحت أعرف الفعل والفاعل.. والمفعول.. نظر الناظر إلينا نحن التسعة الخايبين وقال:

- جهزوا أدواتكم..

أخذت أجمع أدواتي بتمهل.. تعمدت أن أتأخر.. نظرت إلى الأبلة.. اقتربت منها ، قلت وأنا أكاد أبكي:

- أبلة.. أنا مش بليد يا أبلة..

ابتسمت.. قلت ثانية:

- أنا مش بليد.. أنا جدع.. اسأليني حتى في الفعل والفاعل والمفعول.. دخل فعل ماضي منصوب بالفتحة.. الولد مفعول به مرفوع..

هنا دخل الناظر ثم خرج مرة أخرى.. وجدت نفسي أبكي.. انتابتني الرغبة أن أظل بالفصل.. ربما لأني أستخسر الفعل والفاعل في الفصل الآخر.. وأنني يجب أن أستمر في فصل الشاطرين كما يقول..

قالت الأبلة ضاحكة:

- أنا ماليش في العملية دي.. أنا جديدة في المدرسة..

لم أكف عن البكاء إلا عندما قالت:

- طيب أنا حأتصرف..

عندما دخل الناظر – أقصد حضرة الناظر – ومعه التلاميذ الجدعان من الفصل الآخر قالت له:

- سيب التلميذ ده هنا..

نظر إليها.. ثم إليَّ.. قال متعجباً:

- اشمعنى ده..؟
- يبدو أن هناك أمل فيه.
- دا أبلدهم..
- مش حا نخسر حاجة.. نجربه..

ووافق..

عدت إلى مقعدي.. أصبحت وحدي .. كلهم شاطرين إلا أنا.. يا خسارة زملائي اللي تعودت عليهم هناك.. قابلتهم أثناء الفسحة، أخذوا يعددون لي مزايا الفصل الثاني.. ما عندهمش أبلة ولا أستاذ، ويقضون النهار كله يلعبون ويضحكون.. زاد أسفي وأنا أسمع أبلة تذكر حاجات لم أسمع عنها.. كنت أعتقد أن الفعل والفاعل والمفعول هم كل شئ في المنهج.. فإذا بي أسمع عن الصفة.. المبتدأ والخبر.. المثنى والجمع. في المساء شرح لي أخي بعضها.. بعد يومين كانت الأبلة تسألنا، لم أجب على الأسئلة التي توجهها وإنما أوكد أنني كنت أفهم الأجوبة وأعرف بعضها.

بدأت أحس أنني كنت بليداً فعلاً، وأنا أعرف أشياء جديدة في العلوم والتاريخ.. والحساب.. ذات يوم أعطتنا الأبلة مسألة.. كان من المعتاد أن تحل المسائل في الكراس بعد أن تكون قد كتبتها على السبورة.. ذهبت إلى الأبلة لأصحح حلها.. فوضعت رقم عشرة بعد علامة الصح.. انبسطت جداً.. فمعنى هذا أنني حليت هذه المسألة عاشر واحد.. في المساء وريت الكراس لأبي وقلت:

- شوف.. عشرة على عشرة..

وأكلها أبي.. ولكن في اليوم التالي لم أستطع أن أولكها له.. لأنها لم تكن عشرة.. بل تسعة.. خفت أن يعتقد أنني بلدت فقررت أن أشرح له الأمر..

بدأت أحس أنني في تقدم ملحوظ.. وأن الثلاثة على عشرة دي مش حاجة كبيرة ولا تستحق الفخر كما كنت أتصور، وأن أهم حاجة هي العشرة على عشرة..

ذات مرة كان الناظر بيشرح لنا الجغرافيا في حصة إضافية، وفي وسط الشرح سألنا إيه عاصمة فرنسا.. وجدت نفسي اقوم دون أن يسألني، وأقول:

- عاصمة فرنسا باريس، ومارسيليا أهم الموانى.. وعاصمة إيطاليا روما..

كان هذا غريباً للكل.. فقد قمت وأجبت على السؤال دون أن يُأذن لي، بل أنني أجبت السؤال عن إيطاليا التي ليست في المقرر.. قال حضرة الناظر:

- جدع ..

كانت هذه الكلمة مهمة لي.. إنها أول مرة يقول لها فيها "جدع".. والجدع عند الناظر جدع بجد، والخايب برضه خايب بجد.. لذا شعرت بأنني أملك الدنيا في إيدي..

في اليوم التالي وقف أحد التلاميذ الأربعة الذين أنافسهم ويصفون أنفسهم بالشطار أمام السبورة قبل أن تدخل الأبلة وكتبت بخط كبير "عاصمة اليونان أثينا".. كدت أن أقوم واكتب "قديمة" لكن الأبلة دخلت أثناء الحصة بدأنا نتنافس.. كنت أحياناً الثالث أو الثاني.. وأحيانا الخامس..

أثناء إحدى الحصص، كنت الأول.. من الغريب أنه لم يكن هناك ثان.. كلمة في ودنك نفس المسألة دي حلها لي أخي أمبارح في البيت.. لم يستطع أحد أن يحلها.. لا الشطار ولا الخايبين.. بعد أن تعذر حل المسألة عليهم نادتني قائلة:

- قوم حل المسألة على السبورة..

قرب نهاية الحصة، قالت لي:

- اجمع كراساتك وأدواتك علشان تقعد هنا

أشارت في مكان في أول الفصل كان يجلس فيه أحد التلامذة الأربعة إياهم.. نظرت إليه بشماتة، وقلت للأبلة:

- أنا هنا أحسن ..

كان فصلنا مقسم إلى فئات.. فالذي يجلس في المقدمة شاطر.. أما من في الخلف فهو طبعا خايب.. مش عارف ليه لم أكن أحب أن أجلس قرب الأبلة، ربما لأنني لا أميل إلى أي من هؤلاء الأربعة فضلا – حلوة فضلا دى – عن أن شقاوتي لا تزال معي، فلا زلت أجيد الهزار لدرجة أن زملائي الجدد أحبوني مثل القدامى.. قلت للأبلة:

- ممكن أقعد هنا..؟

أشرت إلى مقعد خالي في الصف الذي بجانب النافذة.. عندما دخل الناظر في اليوم التالي سألني:

- إنت مبسوط كده..؟
- أيوة..

وبدأ يشرح درساً جديداً ..

بدأت أشعر أنني في عالم جديد خاصة بعد أن جاءني أحد الأربعة قائلاً:

- إيه رأيك لو حلينا المسألة دي سوا..؟

لم تسعني الفرحة.. بدأت أحل المسألة وأنا أشعر أنني إمبراطور توجوه على الفصل.. منذ ذلك اليوم بدأوا يحومون حولي ويجلسون بجانبي ويناقشوني في حل المسائل. حمت المنافسة عندما أجرت الأبلة امتحان تجربة وبعده بأسبوع أوقفتني أما زملائي، وقالت:

- في حاجه أنا مبسوطة منها وعايزة أقولها لكم.. أنا يسعدني أن أقول لكم إن زميلكم هو الأول في الامتحان..

- كنت أعرف أنها ستقول ذلك.. كل ما تعلق بذهني كلامها.. يبدو أنه سيجئ منه .. مش حانخسر حاجة ونجربه..

وفعلا.. فمنذ هذا اليوم والأبلة تهتم بي.. والناظر يوليني اهتماماً.. لدرجة أنه قال لي مرة:

- اتجدعن علشان ترفع راس المدرسة..

بدأت الأبلة لا تسأل أحدا في الفصل سواي.. وكلما أحل مسألة تمتدحني وتقول:

- هذه هي الشطارة..

كان هذا يحفزني أن أجتهد.. فيزيد اقتراب زملائي مني.. اعمل لنا الواجب.. اكتب لي الإملاء.. تعال ذاكر عندي..

لا أعرف لماذا أحسست بالضيق يوماً عندما كانت الأبلة جالسة أمامنا وهي تضع ساقاً على ساق وقد ظهر جزء من فخذيها.. كانت تكتب غير عابئة بنظرات زميلي الذي يجلس بجانبي، ويقول لي:

- يا وعدي.. قشطة..

لا أعرف لماذا ضربته بالكراس في وجهه.. لقد أزادها حبتين.. نظرت الأبلة إلينا ثم نحوي في عتاب خفيف.. لم تفهم شيئاً.

لم أقل أنني كنت أرى وجهها يطل من كل صفحة كتاب أذاكره، وكنت أجد نفسي سرحاناً فيها، أتذكر وجهها الباسم وحوادث اليوم الأخير بالنسبة لي.. كنت حاسس إنها تهتم بي وحدي.. وإني أفكر فيها وحدي، لذا كنت أحب أن أريها أنني أجدع تلميذ حتى تزداد إعجاباً بي، وحباً لي.. لا أعرف أي نوع من الحب.. لكنه حب وخلاص.

نسيت أن اقول لك أن فصلنا فيه تلميذة جديدة حولت من مدرسة بعيدة ويقال أنها قريبة الناظر.. ومن أول يوم دخلت فيه الفصل والتلاميذ يحومون حولها.. شوف ولاد الحرام.. كل منهم يود أن يقعد معها وأن يساعدها في حل المسائل.. لكنها كانت كثيراً ما تترك مكانها لتسألني سؤالاً لأحل لها مسألة.. لا أعرف لماذا لم أعد أهتم بها.. أو بالضبط أنني لم أهتم بها قط.. فقد كنت في واد آخر..

أحسست أنني أهتم في الايام الأخيرة بطريقة كلامها وبما تقوله كما كنت في أول الأمر.. وإنني باهتم بالفساتين الجديدة.. كان عندي

دفتر باكتب فيه أنه في اليوم الفلاني ارتدت أبلتي الفلانية بلوزة لونها أحمر وجونلة قصيرة أو طويلة لونها بنفسجي وحذاء لونه..

منذ عدة أيام كنت أستمع إلى أغنية مشهورة كلها حب وهيام.. لا أعرف لماذا

وجدت نفسي أفكر في أبلتي.. ظللت طيلة النهار أردد الأغنية.. ووجدتني في هذا اليوم التالي استمع إلى أغنيات أخرى متعمداً..

إذا سارت في فناء المدرسة وجدت نفسي أنظر إلى الأرض خجلا.. قالت لي يوما:

- ما سلمتش ليه عليَّ؟

لم أستطع الرد عليها.. سألت:

- مش عيب..؟

عجز لساني عن الكلام.. أخرجت شلناً من حقيبتها واعطته لي قائلة:

- هات لك حاجة حلوة..

وجدت نفسي أنظر إلى الأرض وأنا أغالب دموعي.. تذكرت يوم أن قالت لي "هو أنت بليد".. تركت الشلن في يدها وجريت وأنا أبكي..

عندما دخلت علينا الفصل في نفس اليوم نظرت إليّ وهي تضحك ولم تقل شيئاً.. كنت أتصور أنها ستعطيني الشلن.. أو تكون قد اشترت الحاجة الحلوة التي قالت عليها ولكن ذلك لم يحدث..

في اليوم التالي تعمدت أن أخرج من جيبي أثناء الحصة عشرة قروش أخذتها في الصباح من فوق الكومودينو وحاولت أن أجعلها تراها، قالت وأنا أعطيها الكراس لتعلم لي المسألة.

- يا بختك.. معاك فلوس كثيرة..

التقت عينانا فأسرعت أغض النظر إلى الأرض وأخذت كراستي وأسرعت إلى مكاني جارياً.. في الظهر عند عودتي سمعت في الطريق أغنية تتكلم عن العيون.. تذكرت عيون أبلتي..

في المساء ذهبت إلى السينما بالعشرة قروش التي أخذتها من فوق الكومودينو.. في الفيلم رأيت فتاة تحب جارها الذي يرسل لها جوابات غرامية.. فكرت أن أفعل ذلك ولكنني راجعت نفسي فأنا لا أحب أبلتي كما تحب هذه الفتاة جارها..

ازداد خجلي منها وتفكيري فيها.. تعمدت أن أنظر إليها كثيراً.. تابعتها يوما وهي عائدة إلى منزلها.. انبسطت جداً أنني عرفته.. رادوتني فكرة أن أمر عليه في المساء.. لكن خفت.. ليه.. مش عارف..

سألت نفسي في ساعة متأخرة من الليل وأنا أذاكر.. ترى هل تحبني كما أحبها؟

أول الأمس تذكرت وأنا في الطريق إلى البيت أنني نسيت قلمي في المدرسة.. جريت عائداً.. علمني أبي ألا يضيع مني شيئ.. دخلت الفصل وكان بابه نصف موارب فوجدته على الدرج.. تنهدت بارتياح ولم يهمني أن تدخل الفراشة لتراني في الفصل وتسألني عم أعادني.. عندما التفتُّ لأخرج سمعت صوتاً يناديني.. التفتُّ إليها، كانت الأبلة والناظر واقفين.. ارتجفت أوصالي وتوارد الدم إلى وجهي.. سألت:

- بتعمل إيه؟

أجبت بارتباك وخوف:

- نسيت قلمي..

اقتربت منها.. كان وجهها محمراً.. طبعت قبلة على جبهتي وهي تقول للناظر:

- دا أحسن تلميذ عندي..

خرجت وأنا أتحسس جبهتي ولا أصدق نفسي.. ألم أقل أنها تحبني؟.

... ...

التقرير الثاني

عمري عشرون عاماً.. قد أزيد بضعة أشهر لكنني أحب أن يكون عمري خُمس قرن، ما علينا.. أنا أستعمل دائما الأتوبيس في ذهابي وعودتي من الكلية.. فقد أذهب هناك مرتين أو أكثر.. الكلية ليست بعيدة عن المترل.. والاشتراك أوفر وسيلة بالطبع..

قالت أمي أول هذا الشهر:

- لا مانع أن تستخرج اشتراكا جديداً لأخيك هذه الفترة

ومع ذلك استخرجناه لأنني أعرف فوائده..

اعتدت أن أركب الأتوبيس قبل نهاية الخط بثلاث محطات كي أتمكن من الجلوس في رحلة الذهاب أو العودة في ذلك اليوم الذي لم أتمكن فيه من الجلوس، امتلأت خياشيمي بدخان سجائر شابين يبدو أنهما كانا يتنافسان في مضايقة من حولهما.

يوما جريت وراء الأتوبيس وقفزت من الباب الخلفي.. في يدي حقيبتي.. وجدت نفسي فجأه أطير في الهواء.. بعد أن قمت من فوق الأرض كانت ملابسي في حاجة إلى علبتين رابسو، وقدماي إلى زجاجة ميكروكروم.. تبت..

اليوم جاء الأتوبيس مزدحماً، لكني استطعت أن أحصل على مقعد.. السابعة مساء سألني المحصل عن التذكرة فأبرزت له الاشتراك.. قال أحد المحصلين يوماً:

- ما رأيك أليست جميلة؟

أشار إلى امرأة في الثلاثين من عمرها مكتنزة الجسم نوعا ما، وقد كست المساحيق وجهها

- سلها كم ستأخذ..
- أقل ما يمكن ..

أخرجت منديلي وخمسة قروش كانت معي. قلت:

- هل يرضيها هذا؟

ضحك وذهب ليأخذ ثمن تذكرة من راكب جديد..

عندما وصل بي الأوتوبيس أول الخط اندفع الركاب صاعدين كي يلحق كل منهم مقعداً.. في ذلك اليوم أردت أن أحجز مقعداً لزميلي الذي كان معي.. قفز أحدهم من النافذة.. لم يتمكن زميلي ولا ذلك الشاب أن يجلسا فقد جلست بجانبي امرأة في الخمسين من عمرها.. أرادت أن تقوم ليجلس أحد الشابين فرفضت.. إنني أعرفها.. حدثتها عن ابنها.. وأنه في مرحلة القبول كنت أذاكر مع أربعة من زملائي في منزل كانت تسكنه.. عرفت منذ أسابيع أن لها ابنتين تصغراني سنا.. حيتني إحداهما يوما وأنا في الأتوبيس.. منذ أسبوعين كنت عائدا إلى

منزلي في إحدى أمسيات الربيع.. الربيع يجعلني مصابا بالشفافية.. جلست وفي يدى لفافة.. سمعت بجانبي فتاتين تتحادثان:

- ماذا قال لك في التليفون؟
- أنا التي قلت له أن "ماما" ليست على ما يرام..

وتستطيع أن تقع خطأ تحت كلمتي "التليفون" و"ماما" وأمثالها، فقد كانتا تضغطان عليها بطريقة تدل أنهما تستغلانها في الكلام لأول مرة في حياتهما.

لم أرفع رأسي لأشاهد من نكونا حسبما تعودت.. فقد كان – رأسي – مدفونا.. إحداهما تقف إلى جانبي وقد التصقت بجسدها كله في كتفي.. عبثا حاولت أن أبعد كتفي.. عندما يأست دفنت رأسي تحت صدرها..

اليوم بعد أن وقف الأوتوبيس في أول الخط صعد ركاب كثيرون.. نظرت إلى الفتاة التي وقفت بجانبي.. طويلة، تحمل في يدها اليمنى بعض الكتب.. ويدها اليسرى حقيبة نسائية.. مددت يدي لآخذ منها ما تحمله.. أعطتها لي وهي تبتسم ابتسامة شكر.. قالت لي يوما فتاة وعلى وجهها العبوس:

- شكراً..

قال لي احد الشباب وعلى وجهه تكشيرة غريبة:

- لا داع

ابتسمت إحدى السيدات يوما وهي تشكرني وتدعو لي بالخير عندما أعطتني حقيبتها.

عندما أعدتها إليها في آخر الخط كانت بقع الزيت تملأ بنطلوني..

أول الأمس أعطاني زميلي كتبه بعد أن جلست.. بعد قليل أعطاني حقيبة أخرى كانت لفتاة تقف بجانبه.. ابتسمت وأنا آخذ منه حقيبة ثالثة لفتاة تقف بجانبها.. قال زميلي هذا يوما ونحن في الطريق:

- لا يمكنني أن أنساها أبداً..

صالحته فتاته.. قبل ذلك بيوم.. قال:

- نادتني باسمي.

نسي كل شئ .. أنه خاصمها ستة أشهر كاملة.. كنا نسير معا داخل الكلية عندما مرقت من أمامنا فجأة .. خيل لي أنني أسمع دقات قلبه.. بعد أن صالحته بيوم قال أنه أسعد البشر.. خاصمته لأنه حدثها في أمورها الخاصة.. قال أنها لا يجب أن تسير هكذا طيلة وقتها مع الشاب الذى يلازمها كظلها.. عندما حاول أن يحادثها بعد ذلك لم ترد عليه.. خاصمها، في الحقيقة لا أعرف من خاصم الآخر.. كلاهما يقول"أنا"..

قال لها زميل آخر يوما:

- دعك من هذا الشاب فهو يضحك عليك.. عندما ماتت أمها سألتها عنوانها لترسل لها برقية عزاء قالت وهى تبتسم:

- لا داع .. افعلوا ذلك يوم خطوبتي..

كان زميلى يجلس بجانبها.. لم تكن تقصده بالطبع.. شاع في قسمنا أن أحد أصدقائنا ركب معها الأوتوبيس يوما وعندما نزل كان مبللا..

وضعت الكتب على وركي والحقيبة فوقهم والتفت إلى الناحية الأخرى.. المحطة مكتظة، بعد أن تحرك الأوتوبيس وجدت أصابعي تلعب في صفحات أحد الكتب.. كتاب جامعي.. على الغلاف اسمها.. إنه نفس اسم أول فتاة أسير معها في الشارع..

لم يستغرق الأمر كثيراً من الوقت.. قلت لها ونحن على السلم:

- سأنتظرك على الناصية..

لم أصدق أنها وافقت بهذه السرعة.. منذ نهاية الشارع تقابلنا وسرنا في الظلام.. احتوتنا الطرق أربع ساعات كاملة.. قبلتها عندما سنحت الفرصة.. الشوارع هادئة مظلمة.. قبلتها في شعرها.. ثم بدأت أقبلها كلما سنحت الفرصة.. سمعت فتاتين تضحكان خلفنا.. لم أكن أتصور أنهما رأيانا..

في تلك الليلة أحسست لأول مرة في حياتى أننى كاذب.. قلت لها "أحبك" أكثر من مرة.. شعرت أننى أكذب على نفسى.. بعد أن

ودعتها تمنيت ألا ألقاها.. لم أفتح لها الباب في اليوم التالى عندما جاءت منزلنا ظهراً .. أما في المساء فقد أدخلتها غرفتى الصغيرة بحجة أنها ستكتب لى بعض الدروس بخطها الجميل.. لم يتصور أحد أن هذا "الطيب" يمكنه أن يفعل ما يحدث وراء ذلك الباب المغلق.. قبلة واحدة تستمر سبع دقائق.. عندما رفعت وجهها بين راحتى وجدته مضرجاً بالدماء وقد أسبلت عينيها وبدت عليها رعشة خفيفة كأنها في شوق لقبلة أخرى.. فعلت..

عندما وضعت رأسها على كتفي لفحتنى أنفاسها الحارة شدتنى إليها بعنف.. لم يدخل أحد إلا عند تقديم الشاى.. قال الذى قدم الشاى بنية صادقة:

- قواك الله

بدت كأنها تعبت من الكتابة.. بعد تلك الليلة لم تخرج كثيرا الى الشوارع.. كانت تأتى كل يوم لتكتب.. علمتها أشياء سبق أن تعلمتها من فتاة أخرى.. طريقة القبلة.. عض اللسان.. ومداعبة الذقن.. قلت وأنا أقبل جسدها:

- ملمس وركيك مرمرى.

مع ذلك لم نبتذل كثيراً مثلما فعلت الفتاة الأولى..
غابت عن المنزل سبعة أشهر سمعت خلالها أنها خطبت.. لم أحس بالحنين إليها.. سمعت صوتها يوما في الغرفة المجاورة.. أخذت تحوم حول غرفتى

كى أدعوها للدخول.. قالت وهى جالسة على المقعد الذى اعتادت الجلوس عليه..

- ألم أوحشك؟

نظرت إلى وجهها البرئ وقلت:

- كثيراً.. تعال لتكتبى لى..

رفعت بصرى إلى الفتاة وأنا في الأتوبيس – تنظر إلى ناحية أخرى.. عندما وجهت نظرها نحوى سألتها:

- في كلية التجارة؟

أدهشنى أنها أجابت على الفور:

- أجل

عاجلتها:

- متى ستبدأ الامتحانات عندكم؟

ردت بهدوء غريب كأن بيننا معرفة قديمة:

- الثامن من الشهر القادم..

لم أجد ما أقوله.. خشيت أن ينتهى الحديث عند هذا الحد.. قلت:

- متى ستنتهى؟

- في يونيه..
- أتجلسين
- لا شكرا..

لم ألح.. إنها سمراء مثل تلك الفتاة.. قبل أحد الامتحانات كنا نقف على باب المعمل حسبما كان يقف معها.. إذا أراد أن يحادثها أثناء الحصص العملى يأتى من مكانه في نهاية المعمل اليها في أوله ثم يهمس في أذنها همساً مريباً:

- أمعك موسي؟

وتعطيه ما يطلب وقد خلا وجهها من أية ملامح، فيذهب إلى مكانه ويعود ثانياً كى يعيد اليها الموسي ليهمس في أذنها:

- شكراً

كانت جميلة.. قال لى زميلى هذا يوماً:

- أحبها أكثر من أمى وأبى..

حاولت أن أجعله ينساها فنادنى باسمى وقال:

- أرجوك لا تنصحنى.. فأنا في منتهى السعادة..

زارنى يوماً أثناء اجازة الصيف وقال:

- إنها تسكن في حيكم.. أتعرف منزلها؟

كان يعتقد أننى أعرف عنها أشياء كثيرة.. قال لى:

- فاتحت أبى في أن يخطبها لى..

أصابتنى الدهشة؛ فقد كانت حالته الاجتماعية لا تسمح له بالزواج.. فعلا في أولى سنوات الجامعة.. خيل لى أنه لا يستطيع أن يفتح كتابا من شدة حبه لها لا أن يفتح لها مترلا..

منذ أيام قابلته.. السقم يبدو على وجهه والأحزان تعلوه.. سألت وأنا أبتسم:

- كيف حال الجو؟

قال بلهجة حزينة أثرت في

- ألم تعرف بما حدث..؟

قلت وقد خمنت أشياءً كثيرة في ذهنى:

- خيرا..
- كدت أن أموت من الصدمة..
- ماذا جرى؟

زم شفتيه وهو يولينى ظهره:

- تزوجت من دكتور في القسم..

قلت لمحدثتى في الأتوبيس:

- كم مادة تدرسون..؟
- إحدى عشرة مادة
- وكم ساعة تدرسون في الأسبوع؟
- كثيراً
- هل الدراسة عندكم صعبة؟
- بالطبع..

قالتها وهى تبتسم.. لبسمتها تأثير غريب.. شفتاها غليظتان.. لا أعرف لماذا لا أحب ذلك النوع من الشفاه مع أننى قبلت مثلهما يوما..

حدث ذلك عندما عدت الى منزلى يوما.. قالت أمى أن هناك فتاة – غلبانة – ماتت أمها وهى صغيرة وتزوج أبوها وعاش بعيدا في مدينة أخرى.. وأنها تعيش مع بعض أولاد الحلال.. بالأمس عندما عادت اليهم لم يفتحوا الباب فنامت على السلم.. عندما طرقت صبيحة اليوم قالوا لها أن عليها أن تذهب لحالها..

أخبرتنى أمى أن الفتاة ستنام عندنا الليلة حتى تصلح ما بينها وبين الناس كما قالت:

- أرجوك أن تقابلها بصدر رحب..

عندما رأيتها لم أتصور أنها " غلبانة" مثلما حدثتنى أمى.. طويلة ممتلئة.. قوية بيضاء.. قصيرة الشعر.. غليظة الشفاه.. بعد أن تناولنا العشاء جلست فوق الأرض وهى توليني ظهرها.. ابتسمت وأنا أدني

إصبع قدمى إلى مؤخرها.. وضعت قدمى تحت وركيها فضغطت عليهما.. بعد قليل انحنيت وقبلتها قبلة سريعة فوق شفتيها الغليظتين.. سألتها:

- سنخرج معا..؟

ارتدت ملابسها.. على باب المترل قالت لى:

- سأذهب الى المحل الذى كنت أعمل فيه وسأعود إليك بعد قليل..

قلت:

- سأحضر معك ..

أحسست أننى أطوق عليها الخناق.. قالت:

- سأصعد وأنتظرك..

صعدت بعد قليل حتى لا يرتاب أحد فينا.. الكل نيام.. رقدت فوقها على السرير الذى تنام فيه وحدها وقبلتها في شفتيها الغليظتين.. بدلت ملابسى وخرجت معى إلى الصالة وتمددت فوق الأريكة.. أحسست أننى أقبل لوحا من الثلج.. على كل فهى أفضل من الوسادة.. وأنا أمد يدى الى وركيها قالت:

- لا .. إلا هذا..

سألتها..

- أنت امرأة أم فتاة..؟

لم ترد.. انفلتت إلى السرير لتنام..

دخلت عليها وقلت:

- تعالى إلى غرفتى..

قالت:

- اسبقنى..

وأنا أنتظرها أحسست بالاشمئزاز...

تصورت كل ما سأفعله معها.. لكننى أحسست أن وجود فتاة في البيت يعتبر غنيمة.. عندما تأخرت ذهبت إليها لأجدها نائمة.. رفعت الغطاء وهمست:

- لماذا لا تأتين؟

قالت بدلال:

- ليست لدى رغبة الليلة..

قلت بسذاجة:

- ولكن أنا عندى رغبة جارفة..

جاءت إلى الغرفة.. قالت ثانية:

- ليست لى رغبة.. هل معك سجائر..؟

نزلت واشتريت سيجارتين.. سألتها وهى تدخن إحداهما:

- أنت امرأة أم فتاة؟

نظرت إلي نظرة تؤكد أنها فتاة وامرأة معا.. قلت بعد أن انتهت من سيجارتها:

- اخلعى ما عليك..

رفضت، فكرت أن أطردها من الغرفة لكننى تذكرت أنها تحبذ الذهاب.. فجأة جذبتنى إليها.. بعد قليل شعرت بالاشمئزاز ورأيت من الأفضل أن أرقد فوق لوح من الثلج.. في الصباح قلت لأمى:

- لا داعي لوجود الفتاة فالبيت ليس واسعا لتقبل ضيوف ثقيلين..

عندما عدت في الظهيرة كانت قد غادرت

أحسست بالسيدة التى بجانبى تتململ.. بدينة في عمر أمى.. قالت لى:

- عن إذنك

أحسست أن الفرصة حانت كى تجلس الفتاة، سألتها:

- أتجلسين هنا أم بجانب النافذة؟

- جلست إلى جدار النافذة. بدأ الأتوبيس يخلو شيئاً فشيئاً من ركابه، قلت لها:

- هذا الأوتوبيس مزدحم دوماً

قالت وهى تزيح خصلة من شعرها:

- نركبه عند الضرورة

- أليس معك "اشتراك"؟

- لا أحب أن أرتبط بركوب خط واحد بالرغم من أن هذا الأتوبيس هو الوحيد الذى يذهب قرابة مترلنا، لكنه يغص بالركاب.

لم يكن ذلك الأوتوبيس مزدحما بالرغم ما اشتهر عنه، في أول مرة ركبته استغرقت الرحلة ساعة كاملة، كنا أربعة أشخاص أنا وصديق الطفولة وفتاتين.

الأوتوبيس مزدحم، أخفينا المظلة تحت أحد المقاعد، قال صديقى يوما: أحبها كثيراً.

كان يقصد إحدى الفتاتين، تعرف عليها يوما في أحد المراكز الثقافية.. كثيرا ما أخذ منى الكتب ليعطيها لها.. كان يحدثها عنى، قال أهما تواعدا على الذهاب الى البحر.. ستجئ وأختها معا.. وعلي أن أكون الرابع.

عندما رأيتها لأول مرة على محطة الأوتوبيس نقلت اليه انطباعى.. ليست جميلة بالقدر الكاف.. متوسطة الطول.. ترتدى نظارة

طبية.. حاولت أن أتجاهلها أول الأمر.. عندما ركبنا الأوتوبيس جلست بجانبها، لم نتبادل سوى كلمات عابرة، بعد أن خلعت نظارتها أحسست أنها لا تود مواصلة الحوار، لم أحادثها طيلة النهار ونحن على الشاطئ.. ساعة الغذاء اصطحبت أختها لتشترى لنا نحن الأربعة طعاما.

حاولت أن أطيل الوقت الذى تغيبه حتى يجلس زميلى مع محبوبته أكثر..

جلسنا نتحادث ونحن نأكل، الفتاة تخجل من الأكل أمام الآخرين حتى لو كانت جوعانة.. قلت لها:

- كلنا نحب أن نأكل وحدنا، خذى الساندوتش كليه بعيداً..

بعد ساعة تركنا المظلة وسرنا نحن الأربعة فوق الرمال.. سرنا وحدنا، قالت أنها: تحب الطرب وأن صوتها جميل (طلبت منها أن تغنى فرفضت.. غنيت كى أشجعها، لكنها لم تتشجع..

ونحن في أوتوبيس العودة الشديد الازدحام جلست بجانبها.. تحادثنا هذه المرة كثيراً، قالت أنها تحب ابن خالتها..

يزورهم كثيراً، عندما دخل الجامعة انقطع عن زيارتهم.. قالت أنها تود رؤيته، ولكن أسرتها تقيدها..

أحسست بالضيق للشطر الأول من حديثها، تتكلم بثبات غريب.. وددت أن أتلافاها، خيل لى أنها ملئت بتناقضات غريبة.. لم أحدث صديقى بما قالت.. لم أرها بعد ذلك.. حاولت أن أبعد صديقى عنها وضايقنى شدة تعلقه بها.. فهو دائم الكلام عنها.. كل ما يقوله يؤكد أنها لا تعرف أبعادها جيداً.. مترددة، قلقة، دبر لقاءً آخر، كنا هذه المرة سبعة أشخاص، أنا.. صديق، أحد الزملاء.. هى.. أختها.. زميلة لها.. ابن أخى الصغير.. كان هذا سلوتى الوحيدة طيلة النهار..

ساعة الغداء سألت الفتاة:

- ما رأيك أن نذهب لنشترى طعاماً؟
- لست جوعانة

في الطريق سألتها:

- اتعتقدين أن الحب آثم؟

حدثتها عن زميلى وإنسانيته وطيبته، قالت أن هناك بعض الشباب يثقلون عليها بعواطف وأنها لم تحب أحداً قط بصدق وأنها في هذه الأيام تعانى من أحد الثقلاء.

عندما عادت إلى المظلة لم تبارح المكان طيلة النهار.. كما لم تخف إعجابها بالشاب المفتول العضلات الذى يجلس أمامنا، تبتسم وتقول:

- شاب جميل، هل من العيب أن أحبه..؟

أدركت اليوم وأنا في الأوتوبيس أن محطتى اقتربت.. قررت أن أظل مكاني فربما يجئ فائدة من الفتاة.. إنها تماثلنى في السن، متوسطة الطول، بشرتها حيوية مختلفة بعد أن وضعت كتبها فوق وركيها، التفتت إلىّ وهى ترفع خصلة من شعرها، قلت:

- الدراسة عندكم صعبة؟

بدأت تعدد لى المواد ومدى الصعوبة في كل منها، تجاوز الأوتوبيس محطتى، لا أعرف لماذا ترتبك عينى وأنا أنظر إلى عينيها، عينان حادتان وليستا بمثل النعوسة التى كانت لتلك الفتاة:

لم يكن فيها شئ جميل سوى عينيها، لا أعرف لماذا أحببتها الى هذا الحد مع أننى كنت أشعر نحوها بالاشمئزاز والنفور والانجذاب والقلق منذ أول يوم فكرت فيها؟

حدث ذلك في أول عام جامعى لى بالجامعة.. في المعمل كنا نقوم ببعض التجارب، سألتنى:

- أهو حامض أم قلوى؟

نظرت إليها، التقت عيناى بعينيها الغريبتين، لا أعرف لماذا أحسست أن صاحبتهما سيكون لها في حياتى أثر.. ارتبكت وأنا أقول:

- حامض

علقت:

- قلوى..

ولم يكن هذا ولا ذاك..

بعد أيام كنت أجلس في المدرج.. جلست خلفي بعض زميلات يتحدثن في الأدب، لا أعرف كيف دخلت معهن في الحديث. قلت لهن أن الدين تنظيم للعلاقات الاجتماعية، وأن الشعر لا يؤدى غرضه في العصر الحديث، وأن أفضل أنواع الكتابة الرواية، أعطتنى إحداهن مقالا كتبته لأقرأه فلم يعجبنى كثيراً، شعرت بالدهشة، قالت فتاة القلوى التى كانت تجلس معهن:

- أكتب شعرا خاصاً بى. ولا أحب عرضه على الآخرين.

كنت قد سألتها ماذا تقرأ.. أحسست بالجزع لقولها هذا، وجهت حديثى للآخريات.. لا أعرف لماذا أتجنبها، ربما حاسة سادسة.

في اليوم التالى نادانى أحد الزملاء قال بسخرية:

- هناك من يريدونك.

رأيت فتاة القلوى تعد أشياءها وتقول لزميلاتها:

- سأعود إلى المترل.

قالت إحداهن لى:

- تريدك أن تقرأ القصيدة..

قرأت:

ولم يهدأ لى بال ... فالصمت يرهقنى

والكذب يؤلمنى ... وبراءة الأطفال

مساكين الصغار ... لم تعد لهم براءة

ونحن الكبار... قتلنا التجارب

سممتنا الآمال ... سفك الكذب دماءنا

أرهقنا رياء الآخرين ... عالمنا محطم

كذب وخيانة ... الجنين يقتل أمه

والزوجة تخون زوجها ... الوفاء فوق الأرفف

الغدر تقود الاجمعين ... ماذا حصدتم

اسألوا أنفسكم أيها البشر

لا أعرف ما الذى أحسسته في تلك اللحظات.. كل ما أعرفه أن رأسى قد شحن بانفعالات غريبة.. بحاستى السادسة أدركت أنه لفتاة القلوى، أثنيت على معنى الشعر، غادرت صاحبته المحاضرة حتى لا اقرأه أمامها.. قابلتها في اليوم التالى في معمل الكيمياء، قلت لها:

- أنا مستعد أن اقرأ آلاف الصفحات من هذه الكتابات.

قلت لها بعد يومين:

- ما رأيك أن ننشر هذه الكتابات في مجلة الحائط ليقرأه الآخرون..؟

رفضت برقة، سألتها في اليوم التالى:

- أما زلت مصرة على موقفك؟

قالت وقد تضرج وجهها بالدماء:

- إنه شئ خاص بى لا بالآخرين.

قررت ألا أفاتحها ثانيا في هذا الموضوع، بعد يومين نادتنى في المعمل واعطتنى ورقة، سألتها مندهشاً:

- أأنشره في المجلة؟

ردت:

- كما تشاء..

بعد أيام تحادثنا من جديد في الأدب والشعر والتجريد، قالت لى: أنت من النوع الذى يبحث عن شئ ولا يعرف ما هو، شغلتنى العبارة طيلة المساء، أدركت أن الزمالة انقلبت إلى إحساس عاطفي، شئ ما

جعلنى أشعر أن علاقتى بها لن تكون على ما يرام، ومع ذلك وجدت نفسى مندفعاً لأبحث عنها، لرؤيتها ومحادثتها.

ذات يوم أحرجنى زميلا أمامها وأنا أحادثها، شعرت بالضيق، يبدو أننى أخطأت، قررت أن أكف عن محادثتها.. بدا القلق على عينيها وأنا أجلس بعيداً عنها، أعددت المجلة يوما وذهبت إليها وقلت:

- ها هى المجلة، أعتقد أنها فاشلة فهى تخلو من النكات والقفشات

جلست بجانبها، قالت:

- هذا الشعر أحبه جداً..
- أنا معجبة به كثيراً
- إنه عالمى كله.
- لى نفس وجهة نظرك في الحياة.
- الناس يملؤهم الرياء

كررت كلمة "رياء" أكثر من مرة بلهجة أثرت في.. قلت:

- يمكننا أن نغدو صديقين حميمين.

هزت رأسها، قلت:

- لا تؤاخذينى إن تجاهلتك في الأيام السابقة بعد أن أحرجنى هذا الشاب

- لا تهتم.

هنا تدخل المعيد فالتزم كل منا في مكانه، وحدنا نتبادل القراءات والأشعار، قالت إحدى زميلاتى يوما:

- أود كتابا من أولئك الذين تعطيهم لزميلتنا

قالت لى يوما:

- أنت مسكين، إنها تعطيهم لزميل آخر يقرأهم.

أحسست بالنيران تقاد داخلى، تحريت الأمر، رأيتها يوما معه، تضحك بنفس الطريقة التى تفعلها معى.. بدأت ترتبط به أكثر، لفت سلوكها أنظار الكثيرين، طرده أحد المعيدين يوما. كان يحادثها بصورة ملفتة، الغيرة تأكل فرحتى، لكننى اعتدت شيئا فشيئا على سلوكها، عرفت أنها تنشر شعرها ليس في مجلات الحائط ولكن على أسماع الطلاب في كل الشُعب.. الطلاب وليس الطالبات، صدقنى لم تعد الغيرة تأكل داخلى..

قلت لمحدثتى في الأوتوبيس:

- أتسكنين هذا الحى؟

لا أعرف لماذا راقت لى، ابتسمت ولم ترد.. ابتعد الأوتوبيس عن محطتى التى اعتدت النزول فيها.. سألتنى:

- في أى كلية أنت؟

- في كلية نتعلم بها عدة سنوات كى نأخذ شهادة، ونصبح موظفين.

سألتها ثانيا:

- حسبتك لا تسكنين هذا الحى.
- بل أسكن هنا..

كان يسكن هنا أيضاً أحد أصدقائى الجدد، عندما زرته بالأمس الأول بدا قلقا.. قال لى:

- بكيت يومها يا صديقى، لا أعرف ما الذى طرأ علىَّ فقد بقيت قابعاً في مكانى أبكى، لم أتصور أننى سأفقدها في اليوم التالى.. ثرت على زملائى في العمل وبكيت على كتف أحدهم كالأطفال.

تزوجت جارته التى أحبها منذ شهر، قال:

- كدت أحس بالشبع عندما أسمع صوتها، لا أعرف لماذا..؟

لا أعرف أيضا هل هناك علاقة بين الحب والجوع.. حدث يوما عندما سكنت أمامهم مع أهلها أن رآها تداعب أخاها الصغير على السرير، وقد انكشف ساقاها، عندما أحست به غطت نفسها وتوارت.

بدأت تسرى في داخله، رآها تنظر من نافذتهم يوما..

الحادية عشر مساء.. ظل يحدق فيها.. عندما نام في آخر الليل نسى أن يأكل، في اليوم التالى كتب لها على ورقة، في المساء أشارت له أن يقابلها في الحارات المجاورة قالت له:

- أنت تحبنى، وأنا أيضاً..

تضايق عندما أضافت "مثل أخى".. تكلما كثيراً في أشياء نسيتها الآن. جلست في الليلة الثانية معه على السلم، مددت له بلفافة وقالت:

- لنأكل سويا..

عدة قطع من البقلاوة، لم يأكلا شيئاً، فقد شبعا من تبادل النظرات.

في اليوم التالى ألقت له في غرفته بورقة بها الكثير من الحلوى، قلت له:

- هذه التصرفات الصبيانية تدل على الحب العميق..

قال أنها خطبت لأحد أقاربها، عندما تزوجت قلت له:

- لكل منا تجربة أو أكثر في حياته.. وهذه الفتاة هى تجربتك الوحيدة، فلن تحب فتاة أخرى قبل عشر سنوات..

وقف الأوتوبيس في آخر محطاته، نزلت الفتاة، نزلت خلفها.. المكان مظلم، قلت وأنا ما زلت على سلم الأوتوبيس:

- أنت تسكنين هنا؟

لم ترد، قلت:

- هل يمكنني رؤيتك ثانيا؟

التفتت إليَّ في دهشة وقالت:

- ماذا تركنا أذن للجهلاء؟!

- فهمت خطأ..

ابتعدنا عن الأوتوبيس قليلا وسط الظلام، نظرت لى شزراً

وقالت: أتسمع؟

لازمتها، فقالت:

- أرجوك، لا تكن وقحاً

وراحت تمرق في الظلام.

سألتني يا سيدى أن أكتب ما تذكرني بهذه الصورة التى أمامى، إنها تذكرني بكل هؤلاء الفتيات اللاتى تحدثت عنهم، هل تصدقنى؟

التقرير الثالث

أقارب الثلاثين من عمرى، أما السؤال الثانى فهو صعب.. فحتى الآن لم أعثر على إنسانة متميزة أكتب عنها شيئاً مهماً، قال جدى قبل مماته:

- الزواج بركة يا ولدى.

كان قد تزوج أربع مرات ومات دون زوجة. عندما بلغت الثانية عشرة من عمرى، قال لى أبى:

- لا أعرف كيف تظل أعزب حتى الآن!

حدث هذا منذ خمس سنوات، تزوج أبى وهو في السادسة عشرة من عمره، عندما بلغ نفس عمرى، كان قد رزق بعشرة أبناء، مات ستة منهم، وقفت يوما معه على أحد الشواطئ، أشار لى شاب في الخامسة والعشرين على ابنه وقال:

- الأبناء زبدة الحياة، الزواج المبكر طيب، فعندما يبلغ المرء الثلاثين يستطيع أن يتخذ من ابنه صديقاً له.. في المصلحة، نعرف أن المدير أعزب ويتمتع بصحة طيبة.. قال يوما: ألا ترانى شاباً؟

- أبو الشباب يا سيدى.

- لأننى لم أتزوج..

في المصلحة أيضا هناك عامل لديه عشرة أطفال ويقبل على البقشيش بأسلوب مثير للاشمئزاز، قال: ماذا أفعل . أفواه العصابة مفتوحة طيلة النهار والليل

سألني أحد الزملاء:

- أسمعت؟
- الزواج سجن، فضلا عن ارتفاع تكاليفه.
- لا أود أن أكون سيدا.. أو مسودا..
- ستكون حراً.
- أستطيع أن أعود لأمي في الثالثة صباحا وأنا مطمئن أنها ليست نائمة مع رجل آخر، ولكنني اذا غبت عن زوجتي ساعة واحدة نهاراً أو ليلا فستحوم عيناها حولها
- ليست كل النساء هكذا.

حدثني زميل يوما قائلاً:

- أخبرني ماذا ستفعل إذا نظرت إليك زميلتك في الشركة نظرة كلها رغبة؟

لعق لسانه وقال:

- إذا كانت جميلة فلن أدع الفرصة تفلت.

قلت ضاحكا:

- المرأة قد تتردد قليلا لكنها لن تترك الفرصة عندما تسنح لها، نحن بشر.

قالت ابنة خالى يوما:

- عليك أن تتزوج حائكة، أنا دخلى لا يقل عن مائتى جنيه..

لم أقتنع بأن أتزوج فتاة تدفن نفسها طيلة النهار وسط سراويل وأقمشة الآخرين، وجدتنى حائراً .. ترى لو اقترنت بإحداهن فماذا تكون صفاها.. قال أبي:

- يا آخذ الصغير يا حرامى السوق.

قالت أمي: يمكنك أن تربيها على يديك.

قال صديق: تستطيع أن تتأكد أها لم تعرف الكثير قبلك

سألت : مثلا، كم سنة؟

- ستة عشر على الأكثر..

زممت شفتيّ، سألتنى إحدى جاراتى يوما:

- الدهن في العتاقى؟

قرأت في إحدى الصحف "المرأة الناضجة تنفع صديقة وعشيقة ولكن إياك أن تتزوجها". في إحد الكتب قرأت: "إذا أردت أن تختار من

تناسبك فاقسم سنوات عمرك على اثنين وأضف سبعة سنوات على النصف، أى أننى يجب أن أتزوج فتاة الثانية والعشرين، كنت مقتنعاً أن السن ليس مهما مثل أشياء أخرى.

"الجمال مثلاً" قالت أمى:

- إنه أهم الأشياء..

كانت جميلة في شبابها.. أحضرت لى إحدى صديقاتها صورة صغيرة مثل التى أمامى الآن، وقالت:

- جاءك السعد يا طارق الأبواب

لم أقتنع يوما بالرتوش التى يضيفها المصور.. قلت يوما لنفسى "الجمال نسبته عشرون في المائة، أما العقل والاتزان فثمانين"

تساءلت يوما: لماذا أبحث عن الصفات وأنا غير مقتنع بالأمر، ولا أمتلك الإمكانيات؟

قال رجل محنك:

- الزواج سترة يا ولدى..

بكت أمى وقالت:

- أود أن أطمئن عليك قبل أن أموت، ابحث عن ابنة الحلال التى تستريح معها، النسب الطيب، والأصل، لا أود أن أكون في قبرى وفوق الأرض امرأة تذيقك العذاب.

قال محنك آخر:

- الزواج جُنة، جَنة، تصور واحدة في أحضانك وسط ليالى الشتاء الباردة.

قرأت في إحدى المجلات "الزواج تكامل، فيه تشعر بأهمية الارتباط والانتماء"، حدث يوما وأنا في زيارة أحد أقاربى أن تشاجر في شارعهم بعض الأشخاص، تطاول ثلاثة شباب على رجل كبير فأردوه أرضاً، فض المشاجرة بعض أولاد الحلال. بعد ساعة سمعنا جلبة جديدة تملأ الشارع، تطلعنا من الشرفة لنرى مشاجرة حامية.. أبناء الرجل العجوز عادوا من أعمالهم وقاموا بالنيل من الذين اعتدوا على أبيهم..

قال مضيفي:

- الأولاد عزوة..

قال أحد زملائى يوماً:

- من الأفضل أن يتزوج المرء بأربع نساء..

قالت امرأة تسكن قبالتى:

- من الأفضل أن يتزوج باثنتين.

سألتها لماذا؟

قالت: كى يحظى بأكبر قسط من الحب والغيرة

لم أرد، فهى تعرف التكاليف الباهظة التى يتكبدها المرء للزواج مرة واحدة، فكيف باثنتين؟

في فيلم شاهدته سمعت رجلا يحادث صديقه:

- لو تزوجت اثنتين فسوف تغير وجوها وأجواءً بدلا من أن تظل أمام عيون زوجتك طيلة عمرك..

هز صديقه رأسه وقال:

- نحن ضعاف في مواجهة امرأة، فكيف باثنتين.

سألت، من أين يبدأ، حدثنى زميل قبل سنوات:

- كى تحظى بتجارب كثيرة فعليك أن تدخل مجتمعات غريبة وجديدة عليك..

دخلت البارات فلم يروقنى ما فيها، قمت برحلات عديدة.. شاكست كل نساء الأرض قرأت الكثير حول النساء.. عرفت الكثيرات.. لكن كلهن سطحيات، قال أبي يوما:

- عليك بابنة عمك

قلت ممتعضاً:

- ليست جميلة..

قال: مدبرة كأمها، ونحن نعيش في أيام شديدة الصعوبة.

- زواج أبناء العمومة يصيب الأبناء بأمراض وراثية..
- خرافات، ثم ان الجمال ليس كل شئ.

قاطعت أمى زوجها:

- ولماذا لا تختار له ابنة خالته؟

قلت وقد زدت امتعاضاً:

- لا هذه ولا تلك.. عندما سأود الزواج سأبلغكم.

قال أبي: تزوجت أمك فور أن أمرنى أبى بذلك.

ابتسمت أمى، قمت من مقعدى وقلت غاضباً:

- لا أريد الزواج من بنات العائلة، أريد وجها جديداً.

قال: شاهد وجوها كما تشاء، لكن الأظافر لا تخرج من اللحم، قال بعد عدة أيام:

- ارتد ملابسك وتعال معى..

زرنا أحد أصدقائه، لديه تسع مصائب، أقصد بنات، تفرغ لإنجابهن، حدثه عن بناته.. بدا الرجل منشرحا..

عندما خرجنا ابديت رفضى، مرة أخرى ذهبنا إلى صديق ثالث أكثر ثراء وابنته أقل جمالا من الفتاة السابقة، بهرتنى زينتها، قال أبي:

- أنت لا تفهم في الجمال

بعد نقاش بين أبي وصديق، طالب هذا ألفا وخمسمائة جنيها مهراً وشقة تمليك، قلت لأبي:

- هل سأشتريها أم سأتزوجها؟

حدثنى أحد أصدقائى عن خطيبته، قال أنه تعرف عليها في الطريق ضمن من كان يطارد في أمسيات الشتاء.. زاول معها العلاقات الجنسية عامين، عندما تقدم لخطبتها لم يرض أبوها في أول الأمر، عندما يود أن ينفرد بها كانوا يضيقون عليه الخناق.

لا أهتم بالعلاقات بعد الخطبة قدر اهتمامى بالشخص الذى سنعقد معه العلاقة، شاهدت فيلما حول عاملة تبحث عن زوج لها ومعها دليلها القبيح، ذهبت الى كل النوادى تبحث عن الرجل المكتمل المقاييس التى يتطلبها العلم..

انتهى بها الأمر من الزواج من دليلها، بل وإنجاب دستة من الأطفال..

قرأت كتابين عن "فن الزواج"، فوجدهما يهتمان بالأوضاع الجنسية، في إحدى الصحف طالعت كوبونا به هذه الخانات: الاسم بوضوح.. الجنسية.. الديانة.. السن.. المؤهل.. الوظيفة.. المرتب.. الدخل الآخر.. الحالة الاجتماعية.. الصفات التى تطلبها في شريك حياتك.. العنوان.. رقم الهاتف.

أرسلت الكوبون الى الصحيفة، نشرت حروف اسمى الأولى بعد عدة أسابيع.. قرأت مجلة يرجع تاريخها الى عشرين عاما عرفت فيها أن اليابان به سوق للزواج تذهب إليه العرائس ويقفن صفوفا، ويمر الشباب ليختار كل منهم شريكة حياته.. مسكينة الفتاة القبيحة..

قال أبي وقد علاه الغضب:

- تتصور أنك تجلس فوق قمة الهرم وتريد الزواج من حتشبسوت وسوف تقع على زنجية معرقبة الساقين تخيفك في المساء..

قلت ضاحكا: لا تقلق، فأنا ضد التفرقة العنصرية.

بدأت أحس بالوحدة أكثر عندما تمت خطبة أعز أصدقائى الذى كنت أقضى معه أوقاتا طويلة، خطب إحدى زميلاته، جميلة، ومثقفة، أصبح يقضى كل أوقاته معها، يحدثنى دائما عنها، سألته بعد شهرين من خطبته:

- أيهما أصدق، الحب قبل الزواج أم بعده؟
- بعد الخطبة..

قال لى صديق آخر:

- الحب قبل الزواج أهم، تتفاهمان وتعرفان بعضكما معرفة تامة.

قلت: الزواج يختلف عن الغرام الذى ينشأ في الصبا لأننا نرى زوجاتنا من خلال أطباق المائدة والغسيل وأعمال المترل الأخرى..

لم يقتنع بما قلت.

بدأت أبحث من جديد، رأيت يوما أحد أصدقائى القدامى مع فتاة حسناء.. عندما التقيت به فيما بعد، علقت:

- لم نعتد منك أن تكون دون جوان..

سألنى: ماذا تقصد؟

وصفت له جمال الفتاة ورقتها، قال:

- خيَّبك الله، إنها أختى..

زرته بعد عدة أيام، فتاة رقيقة، سألتها وأنا أقف على الباب:

- متى خرج؟
- منذ ساعة
- أمن الممكن أن أترك له ورقة؟

أتتنى بقلم وورقة لأكتب له موعد آخر وقلبى يدق بعنف.. يدى ترتجف وأنا أكتب، مدت لها الورقة، وأنا أصافحها نظرت إلى الدبلة البراقة في إصبعها، لم أزر صديقى بعد ذلك..

أرسلت لى فتاة خطابا بشأن الإعلان الذى نشرته الصحيفة كتبت عنوانها، رأيتها خارجة يوما من بيتها لم تكن بنفس السن الذى ذكرته في الخطاب، وإنما كانت أكثر طولا وجمالا، ترقبتها وأنا أكثر دهشة أن فتاة كهذه لا تجد زوجاً حتى الآن، يبدو أننى لست الوحيد الذى يعانى من المشكلة، رأيتها تقابل رجلا في الأربعين من عمره تتبعتهما حتى دخلا شاليه عند البحر.

حكيت لأمى ما حدث فقالت أن بنات هذه الأيام ملعونات.. قال لى صديق أن الخيانة أخف وطأة من أشياء أخرى، فقد خطب فتاة وصرف عليها الكثير ليفاجئ أنها مريضة مرضاً خطيراً، تركها دون أن يعتذر بكلمة واحدة.

قالت أختى:

- أود أن أصبح عمة

سألتها: وأين بنت الحلال؟

قال لى صديق: من يتزوج وحيدة أمها فإنه لابد يتزوج أمها أيضاً.

- كيف؟
- لن تترك ابنتها قط ستلازمها كظلها.

حدثني أحد زملائى بأن لزوجته زميلة تنتظر العريس، اتفق معى أن أزوره في مترله في نفس الموعد الذى ستزورهما الفتاة.. جميلة، ممتلئة.. تحادثنا نحن الأربعة بعد ساعتين نزلنا معا لأوصلها الى مترلها..

عندما قالت أنها مشرفة اجتماعية ضحكت وأنا أقول لنفسى "باب النجار".. تحادثنا في أشياء كثيرة.. قالت أن عمها هو أستاذ جامعى وأن زوج أختها عميد إحدى الكليات، التقينا بعد ذلك مرة أخرى وتحدثنا طويلا، حدثنى صديقى نقلا عن زوجته نقلا عنها أنها معجبة بي وأننى شاب لا بأس به، قلت لصديقى وأنا أبتسم: أشكركم.

قالت أيضا لزميلتها أنها مستعدة أن تساعدنى في تكاليف الزواج، وخاصة في البحث عن شقة، حادثت والدى في الأمر، تواعدنا على زيارتهم في المترل، بعد أن نزلت قالت أمى:

- هل انتهت النساء من الدنيا؟
- وماذا بها؟

أشارت إلى أبى وقالت:

- لن أقول شيئا حتى لا تعتقد أننى أود أن أزوجك ابنة خالتك.

قال أبي وهو يتكئ على عصاه:

- لا أعرف ماذا أقول.

قال بعد الحاح زوجته: البنت طيبة ومؤدبة وأسرهًا موسرة لكن..

لم استعجله أن يقول شيئا، فقد كنت أعرف ما سيقوله "يا آخذ الصغير يا حرامى السوق"

قال: إنها أكبر منك، في الخامسة والثلاثين تقريبا.

قال: تبدأ الفتاة في استقبال خريفها في الخامسة والثلاثين بعكس الرجل الذى يبدأه بعد الخمسين، ثم مستطرداً:

- يا رجل، اذهب وابحث لك عن..

قلت: حرامى السوق..

في ختام رسالتى أهمس – يا سيدى – في أذنك بشئ مهم أمامى الآن صورة لفتاة جميلة "يبدو أنها أختك فهى تشبهك.. مثلما كانت تشبه الفتاة صديقى، لماذا لا تحاول وتجرب.. ويمكن يكون لنا في الخير نصيب..؟

التقرير الرابع

أمامى الآن بضعة أوراق وقلم وصورة لفتاة جميلة وسؤال يطلب منى أن أكتب عما تذكرنى به هذه الصورة في الواقع فإننا نقابل يوميا الكثير من الفتيات اللاتى يشبهنها، بالأمس مثلا قال لى ذلك الشاب:

- معذرة يا سيدى ، فأنا ليس لىَّ مكتب، والمائدة الوحيدة التى نجلس عليها أنا وزملائى لا تكاد تسعنا..

زممت شفتى قليلا ولم أرد، قال:

- نحن المدرسون ينظرون إلينا دائما نظرة خاطئة، وخاصة مدرسو الابتدائى، دروس خصوصية، وعدم التزام في العمل.

قلت: رسالتك أن تعمل.

- بالطبع، ورسالتهم أن يهيئوا لىّ الراحة لأعمل.
- لا أقصد العمل فقط، لكن الإخلاص في العمل.
- لا ينقصنى ذلك

قلت بجفاء باد:

- لا أعتقد.. لا أتصور أن يكون مدرساً لأطفال صغار ويرتدى مثل هذه الملابس ويهتم بشعره مثلما تفعل.

- أسأت فهمى..

- أنت مثلا تود أن تجلس أمام مكتب يشابه مكاتب رؤساء الوزراء كى يتناسب مع مظهرك.

- ظلمتنى يا سيدى.

- أحدثك كأخ اكبر يخاف على مصلحتك

- اسمعنى يا سيدى

- بالله عليك، أنت قدوة لتلاميذك، ماذا سيفعلون ومدرسهم يرتدى هذه الملابس؟

- ليس لك الحق أن..

- أى حق؟

- أن تكلمنى هكذا، هذا سلوكى الشخصى وذاك مظهرى.. أما عملى فإننى أؤديه كما يجب سيادتك ترتدى أيضاً الملابس الفخمة وأنا أفعل بطريقتى، لكل منا طريقته في التأنق.

نحن الشباب لنا أساليبنا، والطموح يملأنا ويدفعنا أن نفعل الأحسن.

شعرت بالانزعاج، إنه يخص الشبيبة بنفسه وينفيها عنى، أنا في الأربعين، وما زلت ألقى الإعجاب من الكثيرين، قلت غاضباً

- استفزنى منظرك كمدرس لابنتى..

- هل قالت لك ابنتك أنني؟
- لم أسمع رأيها فيك.
- أحسبها قد اشتكت لك

بالأمس حينما عدت من الخارج دخلت إلى حجرتها، أطلقت عليها التحية، سألتها:

- لماذا لا تردين؟

لم تلتفت إليّ، لمست كتفها الصغير وهى تنظر إلى كتابها المغلوب، تخفي وجهها بين راحتيها، انزعجت وأنا أسألها:

- ما بك يا صغيرة؟

مسحت وجهها بكفها ثم التفتت إليّ وهى تتصنع البشاشة.. إنها تبكى، سألتها.

- خيرا.. ماذا بك؟

لم ترد.. أكملت:

- مريضة؟
- ....
- هل أغضبك أحدهم؟

أولتنى ظهرها، المقعد غير مرتب، المكتب الصغير انسكبت عليه بعض نقاط الألوان أمسكت يدها الصغيرة وقلت وأنا ألاعب أصابعها:

- حدثيني ماذا بك؟

لم ترد، غيرت نبرتى، قلت:

- أيعجبك ألا تردين على أبيك.

التفتت إلىّ ثم ارتمت على كتفي وهى تبكى، قالت مجهشة بأسلوب أقرب لما يفعلونه في التليفزيون:

- سبنى بأمى
- من؟
- زميلى في الفصل..

ضحكت، رفعت وجهها بين راحتى وقلت:

- لماذا!؟
- دون سبب
- أليس هو زميلك الطيب الذى تكلمينني عنه دوما؟

هزت رأسها بالإيجاب، ضرب إحدى زميلاته يوما لأنها أرادت مضايقتها، سألتها:

- لماذا سبك إذن؟

- لأنه قليل الأدب.
- ولكنه كان في غاية الذوق من قبل
- لأنه وقح..
- أتقصدين سافل وسخيف؟
- أجل
- ولماذا سبك؟
- لأنه مجرم
- أنت هكذا تسبينه مثلما سبك، هيا اغسلى وجهك، فلو نظرت إلى المرآة لرأيت مظهرك قبيحا.
- ضربنى على خدى
- وماذا فعلت؟
- شكوته إلى المدرس وأنا أبكى.
- وماذا فعل المدرس؟
- قال اضربيه كما ضربك.
- ياله من أفاق، وهل فعلت؟
- لم أستطع ضربه فهو أقوى منى.
- أتخافين منه؟
- ضربنى ثانية بعد أن خرجنا من المدرسة، قلت له سآتى لك بأبى غدا.
- لماذا؟
- كى تضربه.

- هل المدرس يضربكم؟
- لا
- أتحبينه؟
- بالطبع، وزميلى أيضا يحبه ويريد يوما أن يصبح مثله.
- مدرس؟
- كى يحبه تلاميذه

هنا طرق الباب، قلت للصغيرة:

- إنها أمك، هيا اغسلى وجهك ولا تريها منظرك هكذا.

خرجت إلى زوجتى، حملت عنها بعض ما تحمله، دخلنا غرفتنا، قلت:

- رحلة شراء طويلة ومكلفة.

قالت وهى تفرك يديها:

- كان يجب أن تأتى معى.

وقفت أمام المرآة وبدأت تلملم شعرها، قالت ضاحكة:

- اشتريت طقما من أقمشة النوم سوف يشتت عقلك
- تفعلين هذا دائما
- واشتريت لشعرك كريما يمنع تساقطه ويدارى ما به من شيب

- الصلعة انكشفت أكثر

وهى تنتهى من لف شعرها قالت:

- اشتريت زجاجة عطر قيمة جداً

بدأت تضم ايشاربا فوق رأسها وهى تعدد ما اشترته..

أقلام روج.. طاقم بأكمله.. ملابس داخلية.. بعض الملابس للصغيرة وأشياء للمدرسة، قالت:

- كشف النظارة يتكلف أكثر
- النظارة الآن مهمة لى.

بدأت تخلع عنها قميصها الأرجوانى، فبدت بالكورسيه الذى يغلف جسدها من صدرها إلى فخذيها..

سألتها:

- ألم يعد يضايقك؟

نظرت إلى جسمها وقالت:

- عندما كان جديداً أفادنى الريجيم..
- اعتدت عليه
- أواظب على ارتدائه..

خلعت الكورسيه وارتدت أحد قمصان نومها الشفاف، قالت وهى تربط شعرها:

- أتناولت عشاءك؟
- نحن ننتظرك أنا والصغيرة.
- ماذا ستأكل؟
- طعام الغداء
- استسهر الليلة أمام التليفزيون؟
- الصغيرة تذاكر، والسهرة ليست لطيفة.
- دعنا ننام.. والبنت تذاكر

إنسان غريب، في الثلاثين من عمره يُهيئ لى أنه يعرف كل شئ في الدنيا، رياضى، يحب الموسيقى، يقرأ بشغف، شديد الجاذبية للنساء، لا أعرف كيف يوفق بين أوقاته.

قال يوماً أنه قرأ في الشهر الواحد أكثر من ثلاثين كتابا.. لا أعرف كيف فعل ذلك؟ لا أستطيع أن أؤكد أنه قرأ العناوين فقط لأنه يستطيع أن يحدثك في أى موضوع بأسلوب المتخصصين، يتكلم حول الموسيقى وكأنه بيتهوفن.. عندما زرته يوما عزف لى على أكثر من آلة "تشيلو"، "جيتار"، "كمان"، أصابعه بارعة وموسيقاه عذبة، ذات يوم كنا معا وعرجنا على إحدى المكتبات ليشترى كتابا، مط شفتيه وهو يشير إليها: قرأها كلها، هذا جيد، وذاك لا يستحق القراءة.

اشترى كتابا ضخما لا أعرف كيف سيقرأه، خرج إلى الطريق وحدثنى عن أحد الأفلام التى رأينا إعلانها يحفظ أسماء العاملين بالفيلم من نجوم ومخرج ومنتج.

قلت: ما رأيك لو أعرتنى هذا الكتاب لأقرأه؟

أعطاه لى، لم أقرأ اكثر من عشرين صفحة طوال ثلاثين يوماً. رددته ثانيا إلى صاحبه..

عندما جلسنا اليوم على المقهى، سألنى:

- شطرنج؟

هززت رأسى قائلا: لا أعرف كيف ألعبها

- فلنلعب طاولة..
- أتجيدها
- بعض الشئ، وأنت؟
- ليس كثيراً، فلنلعبها.

فتح الطاولة أمامى وقال، سألعب بالدوائر السوداء.

- حسناً، سآخذ الأبيض
- أنبدأ، امسك الزهر.

دحرجته على الطاولة، وقال:

- ثلاثة، وأنت، واحد، يا خائب، لنبدأ، شيش بيش
- فلنتكلم بالأرقام.
- خمسة ستة.
- اثنين، ثلاثة، خمسة
- ثلاثة، أربعة، خمسة
- ستة ستة، واحد اثنين ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، واحد اثنين ثلاثة، أربعة ستة، خانة.
- كان من الممكن أن تمسكنى.
- فليكن.
- لا. حظ سعيد، مرة أخرى، واحد، واحد، حسنا، خانتان، العب.
- خمسة ثلاثة.
- ستة ثلاثة، حاول أن تغطى دوائرك.
- مارس بإذن الله
- أربعة ثلاثة، لعبة أخرى.
- لا أعرف كيف ألعب معك، فلنكف عن اللعب.
- هل تضايقت؟
- أنا لا أباريك، منذ متى تعلمت..؟
- حوالى عام. لا أواظب عليها كثيرا، فأنا أحب الشطرنج
- هل تكمل؟
- كما تشاء

- أمسكتنى في ثلاث خانات

"خمسة حبيبى"

- خمسة، آ÷ ، ستة لعن الله الراديو، مزعج.
- أتمسح يا بك؟
- العب، ستة اثنين
- اتمسح يا بك؟
- ثلاثة، اثنين، واحد اثنين.
- "لوعنى غرامك" أغنية سخيفة تهل علينا من الراديو
- واحد اثنين
- أمسكتنى
- اتمسح يابك؟
- ثلاثة واثنين، أرقامى دائما صغيرة.
- "لوعنى غرامك"
- أربعة واثنان
- اتمسح يابك؟
- أأمسكك، لا داع لأن حالك يرثى له.
- ثلاثة ستة، واحد اثنين ثلاثة، واحد لوعنى، ثلاثة
- لا يا بنى مسحته بالأمس.
- كالزجاج سيبرق
- العب.

- خمسة ستة – سأفك عنك حتى تستطيع اللعب
- لا أريدك أن تغلبنى بالعطف، أريد أن أهزم بشرف
- لمعة من الخارج

وضعت قدمى فوق الصندوق، الدور بالغ السخونة

- ستة ستة. إنها فرصتك ولكنك لا تستطيع أن تلعب بكفاءة

"غرامك لوعنى"

- لعن الله الغرام، أكمل الدور يا سيدى
- شكرا يا بك..
- أهكذا بسرعة، خير؟
- من الأفضل ألا تلعب طاولة مع أحد حتى لا يسخر منك.

قال وهو يغلق الطاولة:

- أنت خائب، لا تغازل السكرتيرة، ولا تحب اللعب

سكرتيرتى، إنها شئ آخر.. جلست أول الأمس على بعد صغير وقد ارتدت ثوبا كشف جزءا كبيرا من صدرها وفخذيها، شعرها منفوش، على شفتيها روج، قلت:

- أنت في العمل تختلفين

قالت بلهجة ساحرة:

- أنت الذى في منتهى التحفظ، تغرق نفسك في العمل
- ماذا تقصدين؟
- ليس لك علاقة مع هذه أو تلك
- لأننى أحب زوجتى
- هل سألك أحد أن تكره زوجتك؟ الحياة فواكه.

نظرت إلى وجهها وساقيها، قلت:

- فاكهة حلوة المذاق
- وأنا أيضا، أنا المتعة.
- ما تقولينه متعة؟
- أنا لا أنام مع إنسان لا يمتعنى
- المتعة شئ ينبع من داخلنا، حتى إذا اشبعناها ماتت
- ولو للحظات.. إنها تموت..
- لهذا أحب العواجيز مثلك
- هل أنا عجوز؟
- أربعون عاما، ألا تعتبر نفسك عجوزا؟
- أنا في قمة الشباب.
- الشباب من هم في الثلاثين
- أنا في عنفوانى والحياة متفتحة أمامى.

ضحكت بصوت عال. سمعنا صديقى يغنى في الحمام، قالت بصوت خفيض:

- إنه صغير ومتمرس، أما أنت فلا تفهم شيئا سوى مغازلة زوجتك

- هل تقاضيت منه أجرا؟

- لست غانية، أبحث فقط عن المتعة، أنا فتاة تمثل أبناء الجيل، عمرى ثلاثون عاما، وتكاليف الزواج مرتفعة.. من يتزوج هذه الأيام مغامر.

- لهذا تذهبين إلى شقق الآخرين؟

- انت متزوج ولديك مسكن. وزوجة وطفلة، تزوجت أيام الرخص، لا تفعل شيئا سوى النوم.

سيدى، قلت لك أن الصورة التى أمامى تذكرنى بأشياء كثيرة لكن سكرتيرتى هى التى في مخيلتى، أخاف أن تكون هذه الصورة لفتاة تمر بنفس الظروف، وتود أنت أن تقيم مؤسسة لتزويج الفتيات خوفا من ضياعهن.

التقرير الخامس

عائد لتوى من السفر مع أننى أشعر بالتعب، إلا أننى أمسك بقلمى لأكتب لك ما تسميه تقريرا، وأجد نفسى مضطرًا أن أكتب بالرغم مما أحسه من تعب فقد وعدتك أن أنتهى من كتابتى خلال أسبوع، ولكن طرأت علىّ ظروف خاصة أخرتنى، لكن إذا كان بعض الناس يكتبون وهم في حال من اللا وعى، فلماذا لا نكتب ونحن في حال من الإعياء؟

عدت اليوم من السفر – كما حدثتك – مع ابنتى التى تذكرنى نوعا ما بالصورة التى أمامى، كنت قلقا وأشد ما يضايقنى جاراى اللذان جلسا أمامنا على المقعد.. والخمسين من العمر تقريبا.. أى يماثلانى في السن.. أحدهما أصلع حتى مؤخرة رأسه، أسمر الوجه، الشعر الباقي على جانب رأسه به بعض الشعيرات البيضاء.. الآخر أكثر طولا وامتلاءً، غزير الشعر، لا يضعان نظارة كالتى على عينى.. أغمضت هذه وعقدت رأسى على صدرى، واستندت على المقعد ومددت قدمى إلى الأمام قليلا محاولا نسيان ضجيج القطار القشاش، وألا أستمع إلى صوت جارىّ المرتفع.. قال أولهما:

- كانت جميلة.. استطاعت أن تأسرنى في مدة قليلة بزيارتها لمترل صديقتها

سأل الثانى:

- ألم تلاحظ زوجتك؟
- لا

سألتنى ابنتى:

- ألا تأكل؟

قال الأول:

- عرفت بالقصة كلها، هززت رأسى بالنفي لابنتى – بعد أن طلقتها وتركت لها ولدى...

قالت الفتاة:

- أرأيت فقد كانت متضايقة.. الأخرى تمتلك كل وقتى

كنت أريد أن أحادث ابنتى، بدأ الموضوع يثيرنى، هززت رأسى بالنفي دون أن أقول شيئًا.

- هل طلبت الأولى نفقة؟

قالت ابنتى:

- المال يذهب ويجئ، ما لم تطلب وسرعان.. والإنسان؟ ما تزوجت – هو الذى يذهب ولا يجئ /1 حسنًا ، وبعد /2 عشت مع هذه..

قلت لابنتى:

- هذا كلام قديم، سبعة عشر عاما /1 ورثناه ويجب أن يلى/2 رزقت منها بستة/1 النقود هى أهم/2 أبناء – شئ ، زمت شفتيها، الرجل لا يكف عن قص حكايته/2 لم أكن أحب الأولاد قدر حبى لزوجتى..

قالت ابنتى: لكن يا أبت الإنسان هو /2 طيلة هذه الفترة الذى يأتى بالنقود.. لا النقود..

لامست شفتى في سخرية بينما الرجل يكمل: كيف أعطيها كل ما امتلك..

قلت: هذا كلام قديم/2 كنت أعطيها أجرى أول كل شهر وآخد

- يجب أن يحدث/2 منها مصروفا كما يأخذ الأولاد بالضبط– تصورى أن هذه الألف جنيه /2 وكان المترل الذى تسكنه باسمها قد أدخرناها لشراء السيارة /2 وكذلك كل – ألم يكن هدذا أفضل/2 الأثاث وأشياء المترل الأخرى..

- لأن صحة الإنسان بالدنيا.

- نعم، الصحة فعلا /1 ، وأبعد – بالدنيا.

تنهد الثانى وهز رأسه في أسى وقال:

/2 عدت يوما – الأمراض ملعونة /2 ، فوجدها بالخارج

قال الأول : كل النساء تخرج – ولكن إذا قال الإنسان على كل ألف جنيه/2: في هذه الأيام تضيع أنها اخذت الشر وراحت ما عادت هناك دنيا..

قاطعنا الثانى متحدثا مع زميله، أيوه لكنها كررت الخروج، كنت – أى خير / مخدوعا، آخر من علم، لقد كانت على – تصورى مثلا أن ألف جنيها هو مبلغ/2[1] علاقة برجل آخر وجاءتك الأخبار متضاربة في أول – ليس صغيرا على موظف مثلى.. وضاع عدا ألف[2]، مثلهم ثم ألف ثالثة في الشهر التالى.

/2 : كنت أخاف أن أفتقدها إنما كان ما يقال صحيحا..

قاطعتنى ابنتى: لا يا بابا ليس ضياع الأشياء /2: وكنت أكذب أذنى وكل ما يلوح لى – سهل كما ضاعت الألف جنيه./2 والأدهى من هذا أننى تأكدت وصمت، – ثم أن النقود ليست كل شئ كما تقول.

---

(1) تدل على الرجل الأول

(2) تدل على الرجل الثانى

ضحكت لسذاجتها حتى أن صوتى كاد أن يعلو فيغطى كل ما يتحدث به جارى، ذلك الزوج المسكين.

قال لزميله:/2، من الأدهى أنها هى التى فاتحتنى.

قلت للفتاة ما تقولينه هذا كلام في كتب الإنشا /2 ، بالأمس، قالت: بمنتهى – فالنقود هى أصل الدنيا.. تصورى :/2: الفجور .. إننى أحبه، أحبه، وكررتها أكثر من مرة وصوتها عال – احتجت قرشا واحدا/2 بصراحة أحسست لنكمل – ثمن تذكرة أتوبيس، هل سيعطيه لك الآخرون بسهولة/2: بالانكماش.

قالت:

- لا

قلت:

- واذا أردتين يوما/2:ولم أرد عليها ثانية.. كنت – أن تسكنى شقة متواضعة، هل سيعطيها لك/2 أخشى أن افتقدها، فقلت لها "سامحك الله " لوجه الله ويمكنه أن يأخذ من غيرك الشئ الفلانى.

- لم ترد ../2 قالت يومها صارخة : أى سماح يا عمر، أنا لا أريد.

أحسست أن قصة جارى مثيرة: سامحك هذا، قلت لك الله يسامحك، صرخت أكثر..

سألت ابنتى حتى لا أجعلها تنتبه إلى ما يقوله الرجل:

- أأنت مقتنعة؟

ردت:

- لا /2 : كنت أخاف، قلت لابنتى: لماذا؟ – أن افتقدنا، وفي نفس اليوم عندما، ومطت شفتيها وقالت:/2 كنت عائداً من المقهى وطرقت على – أنا أعرف أن المال ليس /2 : الباب ولم تفتح لى.. أخذت أطرق، كل شئ في الدنيا– فواصلت الطرق بشدة حتى استيقظ – والحب والحنان هما أهم شئ /2 : الجدير أن . فآثرت أن أجلس. في هذه الدنيا.. ربما أن المال كثير عند الأغنياء/2: على السلم إلى السياج وعندما خرج أولادى – وفي البنوك ومع أصحاب محلات الانفتاح/2: دخلت فقابلتنى بصوتها العالى تجمع الجيران – والفقراء معهم قدرا منه/2: وأنا أحاول أن أهدئها .. لكن الحنان لا – لكنها لم تقف – ليس له بنك ولا يخرج من جيوب الناس/2 : وأنا أحس بالحيرة والقلق، عدت إليها بعد – إننا نستطيع أن نطبع النقود، لكن/2 : بعد ساعتين ريثما تكون قد هدأت ولكنها – ولكننا لا نستطيع أن نخلق ذرة واحدة من /2: ثارت في وجهى وطردتنى شر طردة قلت لها قبل أن أخرج–/2: سوف تندمين..

ضحكت من سذاجة الفتاة وقلت لها:

-        هذه الأشياء جميلة في موضوعات الإنشاء وعلى شاشات التليفزيون.

سكت الرجل الثانى قليلاً. سأله صديقه:

-        وذهبت إلى مترل إخوتك؟

"اشرب كوكاكولا باردة..

تصايح بهذا أحد بائعى المثلجات وسط العربة.. قال

الرجل الثانى :/2 ثلاثة أيام عدت بعدها إلى مترلى لكنها..

قالت ابنتى، أنتم هكذا الجيل القديم /2: كانت على موقعها.. طلبت منى ستهاجمون جيلنا /2: الطلاق وكان..

قلت : كانت ساذجة ومندفعة /2 : أهذا أقسى نبأ سمعته ، – وخيالية /2 في حياتى – يجب أن تعرفه معه "اشرب كوكاكولا باردة" أسلوبك /2 ولم أصدقه – في التفكير "اشرب كوكاكولا"

-        اعطنا زجاجتين

مددت الزجاجة لابنتى وأخذت الأخرى، عدت لمتابعة حديث جاريّ:

/2: وتركت لها الأولاد مع أختى أربعة أشهر وأنا في حال يرثى لها.. شعرت بالرثاء والضيق فقلت لابنتى بصوت عال محاولا ألا أستمع أنا الآخر إلى قصته الساذجة

- يا ابنتي.. أنت صغيرة وسوف نعلمك /2 معذبًا الحياة /2: وكان لا يهمنى أولادى بقدر ما يهمنى..

انتهت الفتاة من شرب زجاجتها، أكملت لها: ثقى بنفسك /2: وتزوجت – أولا قبل أن تثقى في الآخرين .

قالت: هذا لا غبار عليه /2: وما زلت متعلقا بها.

قلت: الشك ليس شعورا طيبا، لكنه/2: الغيرة في قلبها .

- الشعور الوحيد الذى نستطيع استعماله كسلاح كى نحيا

- قالت بمنتهى البراءة: الحب فوق كل شئ.

ابتسمت ساخرًا وأنا أحاول ألا أسمع إلى جارى الساذج وقلت بصوت عال نوعا:

- هيا فالقطار مزدحم بالركاب، حاولى شراء سندوتشات/2: ولم أفلح – بهذا الحب؟: وطلقتها أيضا..

هنا استندت على المقعد في اهتمام، فهمت أن جارى طلق زوجته الثالثة لأنها تأخرت بعض الوقت في السوق.. نظرت إليه بحنق. كان

يتكلم بصوت عال كأنه يريد من الركاب أن يسمعوا.. أكمل /2 : عرفت أن عشيقها لم يرض أن يتزوجها، حاولت أن أرسل بعض الوسطاء لأصالحها لكنها رفضت.

عشيقها هجرها، وهى هجرتنى، وأنا هجرت زوجتى الثالثة.

التفت إلى البائع الذى عاد يأخذ الفوارغ.. أغمضت عينى، سألتنى الفتاة:

- هل /2: الدنيا – ستنام؟
- لا /2: وبقيت في حيرتى

شردت أنا في.. الله "اشرب كوكاكولا" لعنك الله.

/2: معارفي والأقربين.. لا أستطيع أن أفكر /2:كنت أشعر بالضياع.. لم يهمنى..

سألتنى ابنتى:

- هل ستشترى السيارة فعلا؟

قلت: أجل.

قال جارى لزميله:/2: أين توقفنا..؟

- أنك ستتزوج للمرة الرابعة.

قلت: عندما كنت في سنك/2: للمرة الرابعة – لا أركب المواصلات كثيرا– فالزواج ليس سهلا – وكنت أميل للسير الكثير – فضلا انى كنت متعلقا بزوجتى الثانية.

قلت: ستنفعك السيارة في الذهاب/2 : وبدأت أبحث عن – إلى الجامعة/2: وحاولت في أول الأمر.

- كالأولاد الأثرياء /2: أن ابتعد عن المنطقة التى كنت أسكنها.

قاطعتنى ابنتى:

- نحن مبسوطين والحمد لله؟: مع زوجتى الثانية – فهناك أناس لا /2: وبحثت بالفعل عن – يجدون قوت يومهم ويحسدون أمثالنا /2: عمل جديد، ووجدت – من هناك بدأت – على زجاجة الكوكا التى /2 أبحث عنها – شربناها/2:أبحث عن زوجة جديدة. وأقوياء .. فما كان – اشترى يا سيد خمس وعشرين – حلاوة بقرش كوكاكولا ../1 منى ألا أن طردهم وأختهم.. كوكاكولا باردة للعطاشى، حلاوة بقرش.. لله يا محسنين /1: وأراد أحدهم أن يتطاول علىّ فلم أسكت، أنا أقول ثلاثين.. أيوه زجاجتين.. واحدة.. الحلاوة بقرش.. يا سيد انزل من فوق الرف، يا محسنين./2 وتشاجرت معهم.. ومع أنهم غلبونى إلا أن أختهم لم تعد ثانية إلى المترل، بل... أحسست بفتاتى تهزنى من كتفي وتقول:

- هل معك فكة؟

مددت يدى بالمبلغ إلى طالب الإحسان، مقطوع اليدين مشوه الوجه، لم أحس بأى شفقة نحوه/1: وعادت بنفسها وبصحبة اثنين من إخوتها في منتهى.. خمسة وثلاثين بخمسة قروش ولا أحد يشترى.. أيوه يا سيد سأعبئ لك أربعين.. نوكا.. لله يا محسنين.. جوعان ولا أحد يدرى بالبطون.. حلاوة.. صورة جميلة بقرش واحد..

قالت ابنتى: هل سندهن الشقة في هذا الشهر؟

هززت رأسى وقلت:

/1: وكانت معى أقل من.. أربعين بخمسة قروش.. برتقال بلدى لله يا محسنين، عاجز يا أولاد.. كوكا.. أخذ الصوت يخف متجها للعربة الأخرى، أنا لست من النوع الذى تتصوره.. الصورة منقوشة بعشرة قروش، اسكت يا ولد كفاك بكاء.

قلت:

- لا أحد الآن لا يكسب /2: وجدتها.. كانت شقيقة كل الناس تعمل وتكسب – أحد زملائى.

قالت بلهجة عاطفية:

- لا يا بابا؟: وتزوجتها – لى زميلات (سكت جارنا وهو يلهث) يعشن في ظروف لا يحسدن عليها..

استبدت بى الرغبة أن أغادر مقعدى وأجلس في الدرجة الثانية، فقد وقف القطار في محطة فاحتشد الركاب في عربتنا التى امتلأت بالضجيج، الأصوات من كل جانب، تستطيع أن تسمعها من تحت قدميك ومن فوق شعرك، أخذ جارى الأول يحكى لزميله عن قصته بدأت أذنى تسمع الأصوات أكثر اختلاطا..

جارى الأول وزميله الثانى يكمل له حكايته وكأنه يعرفها وابنتى التى تناقشنى في المثاليات. الصغير الذى يجلس في مكان ما بالعربة وهو يصرخ وباعة السجائر والبرتقال. خمس برتقالات بخمسة قروش.. خسارة يا عالم، سمعت جارى الأول يقول وسط انتباهى لبائع البرتقال/1:لم تكن تستطيع التفوه بحرف واحد، اعتدلت ثانية واغلقت أذنى اليسرى حيث تجلس ابنتى.. وانتبهت لجارى:

/1 – ذات يوم ضربتها – بخمسة قروش – كوكاكولا ، /1: ولما جاء إخوتها الأربعة – بخمسة قروش /1 وحاولوا أن يثبتوا – أنا أقول عشرين – كوكاكولا باردة/1:

- يا صغيرتى نحن نسكن شقة جاهزة، ولا داعي لنضييع النقود في الدهان.

هزت الفتاة رأسها وقالت:

- لا يا بابا .. نريد ديكورا جديدا، أنا قلت أربعين برتقاله بخمسة قروش، يا رزق من يقول "هات"، حسنه لله يا محسنين.. الرزق

على الله، وأنا أقول الحلاوة بقرش واحد.. الصورة بعشرة واحد، اقرأ واتسلى.. مجلة بخمسة قروش، قال الرجل الأول:

- تعيش الآن معى ولا تستطيع أن تتفوه بكلمة.

رأيت زميله يتعجب، وقد بدا بعض الارتباك على وجهه وهو يحاول أن يبتلع لعابه بعض الشئ، نظرت لابنتى، الضجيج أكثر من صاخب والكلمات تتدافع لأذنى بصورة يصعب تميزها خاصة أن أذنى تتعبنى في السنوات الأخيرة.

خلعت نظارتى رحت أمسحها وأنا أحاول جمع كل ما يدور حولى في حوار واحد، التفت لابنتى.. تتطلع إلى الحقول الخضراء.. وقلت لوحيدتى:

- الضجة تملأ الأذن

بائعو البرتقال والمجلات القديمة، ثلاثة شحاذون يتبارون في انتقاء الكلمات التى تدر التعاطف.. بائع الكوكا الذى عاد ثانية من العربة الأخرى.. بائع الحلوى.. جارى الأول الذى رفض حكايته مع زوجته بنظرات تخلو تماما من البطولة، جاره الذى يهتز وكأنه سيكسر رأسى الذى يهتز من اندفاع القطار، والواقفون بجانبى لا يجدون لهم مكانا.. بائع البرتقال ازدحم القطار بهم مرة واحدة، قلت:

- غلطنا حين ركبنا هذا القطار.
- لحقناه في آخر لحظة، ولم نجد غيره

مدت يدها واشترت مجلة.. منحتنى إياها

"أربعون رجلا يهربون عبر الحدود.. أربعون برتقالة بخمسة قروش.. هاك الكيس يا سيد".. أخبار الفن.. ملكة جمال العالم ترقص عارية في كأس من فضة.. قطعة الحلوى بقرش واحد يا محترم "يبلغ ثمن الكأس أكثر من مليون جنيه" رائع .. وقد صنعه خبراء في السباكة ، مجلات بعشرة قروش.. تسلى يا سيد.. وسوف ترقص عارية أمام حشد من رجال الأعمال والصحافة.. عاجز النظر ، حسنة لله يا سيد.. رئيس الوزراء يفتتح معرضا لأبحاث الفضاء، بخمسة قروش فقط، يا .. "الاشتراكية في ميزان العصور، نفد كتاب "اسكت يا صغير فسوف اشتر لك، حلاوة بقرش يا سيد، اضحك كركر.. "صورة جميلة، اعمل لى منها ستة صغيرين للبطاقة، هئ، هئ.. والرزق على الله يا محسنين، نكت في منتهى السخافة، "غدا يبدأ سباق السباحة الدولى، ضاعت أيامنا.. قديما كنت أفخر وأنا أتمدد بجسدى فوق رمال الشاطئ لاحظى بإعجاب الحسناوات، أما اليوم فلم أعد أجرؤ على الاقتراب من المياه "سيربح الأول عشرين ألف جنيه، أربعون.. أناس يعومون في المانش وآخرون يسبحون في البرتقال.. انتابتنى الرغبة أن أقوم وأسبه، الضجيج ينهش رأسى.. قلت للفتاة:

- هيا بنا إلى الدرجة الثانية، قمت من مكانى وألقيت المجلة في عصبية على المقعد، لم تكن العربة الثانية أقل ازدحاما.. ثلاث بائعى برتقال لكسب المعركة:

- أبيع ستين برتقالة بعشرة قروش.

ملأ لى الكيس وأذناى لا تزالان في طنين، خيل الى أن من يصنعون الزحام هم هؤلاء صناع الصخب.

حملت الكيس وعدت الى العربة الأولى، هناك من شغل مكانى نظرت إلى ابنتى التى لم تقل شيئا، أعطيتها الكيس.. قال الرجل:

- أتود الجلوس يا بنى؟

قلت وأنا اشعر بالانتشاء لـــ "ابنتى" هذه:

- لا يا حاج، استرح إنت.

ظللت واقفا ساعتين إلا ربعا وقد علانى الصخب الذى يصل من العجلات مباشرة عن طريق قدمى إلى رأسى فضلا عن اثنين وأربعين برتقالة.. الأولاد سيجلبون علينا المتاعب، كوكا يا سيد.. ألا تود الجلوس يا بابا؟ الصورة الواحدة بخمسة قروش، يا سيد.. ابعد مكانك.. المجلات يا سيد.. الثقافة.. العلم نور، وأربعون برتقالة.. قروش الحلوى يا سيد، القطعة بقرش، اصمت أيها الكلب لقد ذابت أذنى من صراخك، يا بابا اجلس فأنت متعب.. ابق مكانك واقرأى المجلة "سوف ترين صورة ملكة جمال العالم وستتمنين أن تكوني مثلهن.. لو حدث لفخرت بها في كل مكان على الأقل سوف نحصل على أموال كثيرة ولتزوجت من رجل ثرى..

التقرير السادس

عمرى ثلاثة وستون عاما، كم أنا الآن سعيد، لكتابة هذه التقرير لأننى أقضى أوقاتى في ملل حاد..

في الصباح، أنزل المقهى حيث أتناول كوب الشاى باللبن وأقرأ الصحف دون أن أترك سطرا، لم أكن أميل إلى الجلوس على المقهى فيما مضى، ولا إلى القراءة كثيرا مثلما أفعل الآن – لكن الملل جعلنى أفعل هذا.. كل زملائى الذين على المعاش يتصرفون مثلى.

ومع أننى لا أجد متعة في الاستمرار على هذا المنوال.. إلا أننى أشعر بالقلق ينهشنى والوحدة تنخر في عظامى عندما أشعر بالفراغ.. نفس الموضوعات المكتوبة في الصحف، نفس التملق.. نفس النقد السطحى واللهاث وراء موضات الشباب.. المينى.. الماكسى.. الشورت، أحدث تسريحة.. أشياء ثابتة كثبات لا شئ.. قالوا في العلوم لا يوجد ثابت ولو كنت عالما لأضفت كل شئ في حركة وتجدد، عدا تملق الصحف..

هذا ليس بيت القصيد على ما أعتقد، لكننى أود أن أصف لك الملل الذى أغوص في حلقاته.

عيناى متعبتان من كثرة القراءة.. أقسمت زوجتى بحرق كل الكتب التى أمتلكها.

أعطت منذ أيام لبائعى العاديات عدة كتب تعرف تماما أنها أثمن من أن تباع لمتخصص، مع ذلك فالقراءة هى أضعف الإيمان بالنسبة لى.

تسألنى عما تذكرنى به صورة فتاة في العشرين من عمره، أعتذر إذا قلت أنه ليس في هذه السنوات ما يذكرنى بها، لكن منذ ثلاثة أعوام كان من الممكن أن أكتب لك بالتفصيل – كما كتبت في كراسى الخاص، هذا الحادث الذى ألم بى وشغل كل وقتى..

حدث هذا حين أحلت على المعاش، شعرت يومها بالأسى داخل رأسى.. أصبحت فوق الرف.. شئ قديم بال لم تعد له أهمية، عود من القصب اعتصرته الوظيفة أربعين عاما ثم القته الماكينة جافا تماما. ولم يعد ترجى منه فائدة، كنت أشعر وأنا موظف أننى إنسان مهم.. في الصبح أصيح وأصرخ في زوجتى.. في المساء ألعن وأسب في المترل حتى أثبت أننى مدير، أو على الأقل موظف مسموع الأوامر، بينى وبينك هذا الشئ تفعله زوجتى الآن.

كنت أرتدى الكرافتة في نصف ساعة، والجورب في ربع ساعة، وهكذا، ينادوننى دائما "سعادة البك" أشعر أننى بؤرة الكون، أما الآن فعلى الهامش.. فوق الرف.

دفعنى هذا أن أنطوى في غرفتى، وأجد نفسى مهموما طيلة وقتى، بدأت الأحزان تتكالب وتتجمع الغيوم داخلى، زادت أحزانى، إلى أن شعرت يوما أن لعابى جاف خاصة عندما أنام، تذوقت يوما بولى فوجدته مسكرا مما دفعنى للذهاب للطبيب، بعد أن فحصنى وحلل بولى، قال لزوجتى:

- السكر مرتفع..

لزمت السرير أصبحت فعلا فوق الرف.. شعر بدنو الخاتمة وأنا الذى كنت أسعى لبناء الحياة، أصبحت أهمل علاجى فيزداد فكرى وأحزانى تتضافر، أحسست بتثاقل في قدمى..

- شلل خفيف.

حدثها أيضا عن الضغط والقلب، قال لى بلهجة الابن الحنون:

- كفاك من كثرة التفكير.

مططت شفتى غير مقتنع، لم أتصور يوما أن أحدًا سينصحنى أنا من يأمر وينصح الناس، ملايين النصائح، أصبحت اليوم من الذين ينصحون، ومن يصغرنى بعشرين عاما.

قالت زوجتى: يجب أن تعتنى بنفسك.

أحضرت التليفزيون إلى غرفتى، لكننى سرعان ما مللته، لم تتحسن حالتى، صارت زوجتى تقوم بتمريضى لكن ذلك تعارض مع

أوقات عملها، زارتنى ابنتى. قامت هى أيضا برعايتى لكننى لمست منها بعض الضيق، لم أحسه قط في عينى زوجتى تعللت أنها تراعى زوجها وأطفالها، ثم أصبحت تزورنى لترانى فقط.

قالت زوجتى:

- أفضل حل أن نأتيك بممرضة.

لم تكن زوجتى تأمن لوجود خادمة في المنزل، فالخادمات يسرقن المنازل ويعرفن أسرارها، أما الممرضة فستعطينى الحقن والدواء ثم تذهب، خاصة أننى بدأت أشعر ببعض التحسن.

وجاءت الممرضة.

في العشرين من عمرها.. تذكرنى بصورة فتاتك نوعا ما وإن كانت أقل جمالا من حيث الوجه، لكن أعتقد أنها أكثر اتساقا، بدت جميلة هادئة في أول الأمر.. اتفقت مع زوجتى أن تحضر مرتين يوميا..

الأولى في السابعة صباحا، والثانية في الثالثة ظهرا بعد أن تعود من عملها لتعطينى الحقنة وتجهز لى السرير وأشيائى الأخرى، لكن كل هذا لم يحل المشكلة، فهى لا تقضى معى أكثر من ربع ساعة تذهب بعدها وأبقى وحيدا مع أفكارى.

عندما أخبرت زوجتى اقترحت أن تشترى لى الصحف والمجلات، بدأت أنهك نفسى في عالم جديد، أحسست به يعجبنى في أول الأمر، لكننى – كما ذكرت – وجدته فيما بعد متكررا مملا.

أتتنى زوجتى بمجموعات من الكتب البوليسية، فأدت غرضا بعض الوقت، لكنها لم تؤده لوقت آخر.

كانت تعاملنى في أول الأمر معاملة غريبة لا تزيد عن "كيف حالك يا حاج" أو "الى اللقاء" تعمدت يوما أن أجعلها تجلس معى، فبدت متمللة، قلت لها:

- هل أنت ضجرة؟

سألت:

- لماذا؟
- أشعر أنك تودين الذهاب.
- تأخرت عن العمل
- أنت تتعبين في العمل؟
- ليس كثيرا.
- ألا تأخذين أجازة؟
- أثناء العطلات.
- كان الله في عونك.
- إلى اللقاء يا حاج.

كنت ما زلت شغوفا بقراءة ذلك النوع من الكتب.

طلبت من زوجتى أن تشترى المزيد، قالت:

- البائع يسخر منى.
- لماذا؟
- هذه الكتب ليست للكبار.
- لكنها تريح المرضى، تجعلنى استرح.

قالت الممرضة وهى تقلب الوسادة يوما:

- ألا زلت تقرأ هذه الكتب؟

قلت:

- إنها سلوتى الوحيدة.
- ألا تستمع إلى الراديو؟
- يسبب صداعا.
- ألا تسليك زوجتك؟
- إنها لا تلعب شيئا.
- قط..؟
- لا كوتشينة ولا شطرنج؟
- ولا أقمصة شفافة؟

نظرت إليها بدهشة، كانت تتكلم بجدية، سألت:

- ماذا تقصدين؟
- ليلة مع زوجتك كفيلة أن تجعلك تقفز من فوق السرير كالحصان.

ارتسمت فجأة على شفتيها ابتسامة، ما لهذه المجنونة ولماذا تتكلم بهذه الطريقة؟، قلت:

- أليس من العيب أن تحدثى رجلا في عمر أبيك هكذا؟
- أنا أعالجك، وهذه وسيلة للعلاج..
- أصبحنا كبارا..
- زوجتك ليست كبيرة، إنها جميلة.
- إنها في الرابعة والخمسين من عمرها، المكياج يا صغيرة
- أنت لم تجربيه
- ومن أدراك؟
- هل تضعينه؟
- كم وضعته لزوجى كل ليلة.. لكن..
- لكن، ماذا؟
- سرقته ابنة الحلال..
- كيف؟
- تزوج بغيرى وطلقنى.
- مسكينة.

مصمصت شفتيها وقالت:

- الدنيا حظوظ.

في المساء أخذت أدقق في امرأتى وهى تغير ملابسها أصبحت بدينة بعض الشئ ولكنها لا تزال تحتفظ بجمالها القديم.. ربما لأنها لم تكن ولودة ولأنها كثيرة الاهتمام بنفسها، قلت وأنا متمدد فوق سريرى:

- لماذا لا ترتدين فستان السمكة؟

نظرت إليها من خلال نظارتى السميكة وهى تبتسم وتقول ناظرة إلى المرآة

- عندما تشفي بإذن الله.
- أنا كالحصان

كانت لا تزال نصف عارية وهى تمشط شعرها الذى تواظب على صبغه كل شهر، قلت:

- صدرك يؤسرنى
- سمعت هذا طيلة ثلاثين عاما.
- أليس هو نفس الصدر منذ ثلاثين عاما، ألم يتغير أو يذبل؟

رفعت شعرها إلى الخلف كفتاة في العشرين مختالة وأنا أقول:

- ألن ترتدي فستانك الأحمر؟

هزت رأسها بالنفي، فقلت:

- ولت أيامنا وغدونا شيوخًا. المرض يدهم الجمل ومع ذلك أشعر الليلة كأننى حصان.

ارتدت فستان السمكة الأحمر وجلست بجانبى.. أخذت أرقبها في نشوة، أحببتها طيلة ثلاثين عاما ولم أملها، ولم تغضب منى يوما، لا أعرف لماذا تشعر بالوحشة ونحن وحدينا خاصة بعد أن تزوجت ابنتنا.. نظرت إلى عينيها وقلت:

- الإنسان يفقد بريق عينيه بعد الأربعين. وأنت في الرابعة والخمسين ولا تزالين تحتفظين بهما براقتين.

قاطعتنى:

- أربعة وخمسين، أنا في الثامنة والثلاثين.
- لا تكونى كالجاهلات.
- أنا في التاسعة والثلاثين، لا أزيد يوما ولا أقل ساعة

تنهدت وأنا أهز رأسى وأقول:

- غيرى يا صغيرتى، أصبحت فوق الرف، غدا سأموت وستتزوجين.
- كفي الله الشر.

- إنها الحقيقة أصبحت عجوزا، قدم فوق الأرض والأخرى تحت القبر، حدثيني، هل ستتزوجين غيرى بعد مماتى؟

- أرجوك حدثنا حديثا طيبا.

قلت وأنا أبتسم:

- سأشعر بالغيرة وأنا في قبرى.

مدت يدها إلى فمى وهى تقول:

- صه

قبلت كفها، قالت:

- ذقنك خشنة لماذا لم تحلقها؟

قالت الممرضة في الصباح:

- نعيما.

الفراش نظيف وقد تمددت تحت الغطاء حتى صدرى.. واستندت أقرأ الصحيفة، قالت:

- عريس الأمس يقرأ الصحيفة ولا يساويه أحد.

ابتسمت، فقالت ضاحكة:

- فارس زمانه، كم مرة تضاجعتما؟

حاولت أن أكون متجهمًا، لكننى وجدت نفسى أتذكر أمسية البارحة، ابتسمت وقلت:

- لم يحدث شئ..
- العب غيرها.. فقد كانت زوجتك بشوشة في الصباح.. اعطنى فخذك..

بعد أن تنهدت سمعتها تقول:

- حدثنى ماذا فعلت بالضبط.
- كفاك وحياتك.

عندما اعتدلت وقعت عيناى على ثدييها، كانت قد فتحت الزرار الأعلى فرأيتهما يتأرجحان وهى منحنية تعد الحقنة للعضل، عندما غرستها كانت عيناى لا تبارحان صدرها..

"صدر ناهد" أليس هو نفس الصدر منذ ثلاثين عاما"

أغلقت عينى وأنا أدير وجهى عنها.

قالت:

- كالأطفال، يغلقون عيونهم عندما يأخذون الحقن
- زررى فستانك فصدرك باد.
- عيناك تلعبان يمينا ويسارا.

"أنا في التاسعة والثلاثين"

- داري صدرك فأنا في عمر أبيك.
- هل يذكرك بصدر زوجتك الضامر.

"صدر ناهد"

- ألا تستحين؟
- وهل فعلت شيئا؟ أنت الذى نظرت لصدرى.

لم أعلق، حاولت أن أنظر إلى جهة أخرى من الغرفة.

قالت: وقد سارت إلى النافذة وأغلقت الستارة:

- تتحسر على شبابك، ومع ذلك لا تود أن تشاهد صدرا أشد جاذبية من نهد زوجتك.
- أنت ممرضة أم...؟
- ممرضة والله، ألا تصدق؟

وقفتها لا تدل على ذلك، تمددت خائرا تحت غطائى وأوليتها ظهرى، ضحكت ساخرة" عجبا لك يا سيدى في المكتب كان يخافك أكبر شارب والآن تعطى ظهرك لى"، التفتُّ إليها لأواجهها، فتحت الستارة عندما أدركت غضبى

قلت لزوجتى في المساء:

- كنت جميلة ليلة الأمس.. شفتاها مليئتان بأحمر الشفاه..
أكملت:

كبرنا، أليس كذلك

- لم أكبر بعد..
- نحن أجداد

أصابعى تعبث في كتفها العارى، قلت:

- هل يخافك الموظفون؟
- إنهم يرتعبون منى.

وهى تنظر إلى المرآة قالت:

- لا زلت حلوة؟
- لا أذكر ماذا كانت ملامحك منذ أعوام.. ولكننى أعترف الآن أنك على ما يرام.
- أتأخذ بخاطرى؟

أشرت إليها أن ترتمى على صدرى ففعلت، قلت وأنا أتحسس ظهرها:

- هل نحن في حاجة إلى هذا؟
- كحاجتنا للطعام والماء

أعطتنى كوبا من الماء ثم كبسولتين وقالت:

- يبدو أنك متعب، كانت ليلة عسل، مساكين نحن الشباب

انتفضت من مكاني وقلت:

- لست عجوزا..

ضربت كفا بآخر وقالت:

- أنت في عمر جدى.
- أنا في الخمسين.
- في عمر أبى.
- إذن لماذا تحدثينى بهذه الطريقة؟
- الدهن في العتاقى
- أنا مريض
- لم تكن مريضا بالأمس وأنت مع زوجتك
- من أدراك بما يحدث بينى وبين زوجتى؟
- عيناك.

تعودت زوجتى أن تسير في الغرفة عارية لأملى بصرى من تقاسيم جسدها، تطلعت الى صدرها يعلو ويهبط وأنا أبتلع حبتين من الفيتامين، سألتنى وهى تمشط شعرها:

- أصابتك لوثة من المرض.
- بل صحوت على جمالك، كأننى أكتشفك من جديد

- المرض جعلنى أفكر فيك

كانت طويلة، صدرها لا يزال صغيرا، آه من الأخرى تلك العاهرة، تتمتم بأشياء أكثر امتلاءا، جازاك الله شرا أيتها الوساوس.. تعمدت أن أقبلها وهى تعطينى الحقنة، قالت بتمنع الراضى:

- يا شقى، شفتاك باردتان

أبعدت وجهى وأنا لا أصدق كيف فعلت هذا.. "أجمل شئ فيك أنك لم ترفضي لى طلبا يوما" رأيتها تطلق لشعرها العنان وتفتح أزرار فستانها فوجدت عينىّ تنظران إلى صدرها، أحسست بالقلق ينتابنى فأنا لم أخن زوجتى، خلعت حذاءها وجلست بالقرب منى، قالت:

- يا عجوز.

دفعتها بشئ من الجفاء فوقعت وهى تضحك، وقالت:

- يبدو أنك من الطراز الذى يحب أن يتفرج على العينة أولا.

ذهبت وأغلقت الستارة ثم وقفت متحدية وقالت:

- أتود أن ترى..

في ثوان خلعت معظم ملابسها، شتان بين تلك التى كانت تجوب الغرفة أمامى بالأمس وبين تلك.. لا مجال للشباب المزيف والحقيقى في

المقارنة، وجدت عينى قلقتين في النظر إليها أو إلى جهة أخرى، قالت وهى تختال بجسدها:

- العينة طيبة، أتشترى؟

أنت لم ترفضى لى طلبا، لم تكن زوجتى مبتذلة

قلت وأنا أهيأ لأغادر السرير:

- حفظنا الله من شرك يا فتاة

دفعتنى بيديها وأجلستنى فوق السرير..

لامست بيدى نهدها، أحسست بقشعريرة، لهثت وهى تضع يديها فوق كتفي وتنظر إلىّ نظرة القوى الذى يهدد الضعيف، عيناى ما زالتا قلقتين بين النظر إلى وجهها أو إلى نهديها المتأرجحين.. قلت مرتعبا:

- أرجوك.. دعينى في حالى..

اقتربت منى أكثر حتى لامس وجهى نهدها وهي تدفعنى

وجدت نفسى أدفن رأسى في صدرها..

قالت زوجتى:

- ألم أقل لك أنك سوف تتعب. لم يكن له داع.

ظللت أشعر بدوار طيلة اليوم ولم أكف عن تناول الفيتامينات حتى هيئ لى أننى تجاوزت الحد.. لم أترك لقيمة واحدة في عشائى رغم ارتفاع نسبة السكرى، قالت زوجتى:

- الأفضل أن تكف حتى تشفي تماما.

كنت أستطيع أن أترك سريرى وأمشى طيلة الأيام السابقة بحرية.

أما الآن فالدوار الذى أصاب رأسى أعجزنى عن ذلك.. كنت خائفا طيلة الليل أن تعود ثانيا في الصباح كعادتها، لم يبارحنى الأرق.. عندما نمت في الساعات الأولى من الصباح دعوت الله ألا تعود.. قالت وهى تضع حقيبتها فوق المقعد:

- كيف حال السبع اليوم؟

لم أرد، قالت:

- سأعطيك خلاصة الكبد حتى تشعر بالقوة.

بعد أن تناولت فطورى للمرة الثالثة، قال:

- من الأفضل أن تستحم فأنت لم تنظف بالأمس..

كنت أعرف أنها ستفعل مثل الأمس. خفت أن اذهب إلى الحمام فتدخل خلفي، أردت أن أتصل بزوجتى في مكتبها لتعود، لكننى خشيت

أن تشك في شئ.. جهزت لى ملابسى، فدخلت الحمام وأنا أشعر أننى أحسن حالا من الأمس

أغلقت الباب جيدا، لم يزد الحمام عن مسح خفيف بالماء البارد وعلى وجهى وشعرى وساقى وذراعى – عندما خرجت وجدتها قد أعدت علاجى لليوم كله، ثم ذهبت، لا أعرف إن كانت شعرت هى بالارتياح أم بالأسى، ولكننى كنت أعرف أننى خرجت من الحمام في حالة نفسية أفضل.

لم تبارحنى زوجتى طيلة اليوم، عادني الدكتور في المساء قال أننى على أحسن ما يرام، أردت أن أسأله هل حان الوقت لنكف عن تناول العلاج، تذكرت نهديها المتأرجحين وملمسهما، ربت على كتفي وقال:

- من الأفضل الانتظار أسبوعا آخر.

في المساء انتابتنى الرغبة أن أعاود الأمر ثانية، شعرت أنها تأخرت في الصباح، سألتها عندما دخلت:

- لماذا تتأخرين هكذا؟

مطت شفتيها للأمام ببلاهة وقالت:

- تحدثنى كأننى زوجتك؟

أخذت تجمع بعض الأوراق من فوق الأرض، فخذاها غليظان، قلت:

- ألا تفكين أزرار فستانك؟

نظرت إلى صدرها وقالت:

- يا عجوز يا شقى.

أخذت تجمع الأوراق بيسراها وهى تتصنع فك أزرار فستانها باليد الأخرى، لكنها لم تفعل شيئا.

رفعت إلىّ عينيها فالتقت بعينى المليئتين بالرغبة، قالت:

- يبدو أن زوجتك تمنعت مساء الأمس.

وضعت الأوراق فوق المنضدة ثم ذهبت لتعد الحقنة، عندما عادت قالت:

- أحضرت لك حقنة تجعلك كالأسد.

بعد تنظيف الحقنة قلت لها:

- ألن تكشفي عن مفاتنك؟

وقفت وسط الغرفة بعد أن أغلقت الستائر، مثيرة فعلا

قلت:

- اقتربى.

خرجت عارية من الغرفة وقالت:

- سأطفئ البوتاجاز.

غابت، شعرت بالقلق، ذهبت إليها، وجدتها جالسة في الصالة.. عندما اقتربت منها جرت إلى غرفتى، قلت:

- لا أستطيع أن أجرى خلفك.

كنا نجرى كما لو كنا في سباق أنا وزوجتى في بعض الأحيان قالت هذه يوما:

- يبدو أننا شاذان.

تأثرت أننا لسنا كذلك، عندما دخلت على الممرضة وجدتها ترتدى ملابسها، لم تنفع توسلاتى، أصرت دون سبب على الذهاب..

في المساء أصررت ألا أترك زوجتى إلا في ساعة متأخرة من الليل، أدركت لأول مرة الفارق الكبير بين أسلوب المرأتين، قالت وهى تغمض عينيها من التعب:

- أخاف عليك.

في الصباح سألت الممرضة:

- هل تفعلين هذا مع كل مرضاك؟
- ماذا تقصد؟
- لا شئ.. أود أن أحلل نسبة السكرى.

- عالية طبعا لأنك كنت بالأمس عريساً.
- كفاك دعابة
- هل قاس لك الطبيب ضغطك بالأمس الأول؟
- كان معتدلا
- كان "عريس"

ضحكت، فقالت:

- لك حق

ظهرت نتيجة التحليل سلبية، أمسكتها من صدرها وقلت:

- يا لك من شقية، أنا سعيد بك.

شعرت فجأة بالاشمئزاز، انتابتنى الرغبة أن أرى زوجتى سألتها:

- ألم تتأخرى عن عملك؟

نظرت نحوى بدلال، قالت وهى ترتدى حذاءها:

- ذقت طعمى فوجدت ملحى كثيرا.
- أدعو الله ألا يقع في طريقك زئر نساء لأنه سيغير من حياتك
- إياك أن تعتقد أننى عاهرة.
- أنت ممرضة تشفين المرضى.
- ربنا هو الشافي..

ابتسمت لأنها ذكرت اسم "الله"، سألت:

- أتعرفين الله؟
- سبحان الله، أعرفه أكثر منك.

أخذت أشياءها وذهبت، في الظهيرة عادت ثانيا وأعطتنى الحقنة ثم ذهبت دون أن نتبادل كلمة واحدة.. لا أعرف لماذا رأيتنى في أوضاع مثيرة معها وأنا نائم، في الصباح تذكرت محاسنها.. مددت يدى إلى شعرها، أخذت أداعبه وهى تعد لى الحقنة.. انزلقت يدى إلى رقبتها.. شعرت وأنا معها بأشياء لا أشعر بها عندما أنام مع زوجتى، لم تذهب إلى عملها طيلة اليوم.. ظللت ألهث من التعب حين عادت زوجتى..

بعد يومين لم أعد أحتمل.. شعرت بالإنهاك يستبد بى.. قالت:

- ألن تشد أنفاسك يا رجل؟

أصبحت كالخرقة البالية، لم أعد أفكر في شئ سوى أن تعود كل يوم.. أعطيتها خمسة جنيهات.. قالت:

- كان أجدادنا على خطأ حين اعتقدوا أن الدهن..

هززت رأسى وقلت:

- مرض وحب..

ضحكت.. عرفت أنها تقصد هذه الكلمة الأخيرة.. شعرت بالرثاء لحالتى في عينى زوج ابنتى عندما زارنا في المساء.. قالت لى صباح اليوم التالى:

- أنا أفضل الشاب القوى المفتول العضلات وأعطيه نقودا عنك أيها الشيخ.

أعطيتها مبلغا أكبر، في المساء زارنى الطبيب وقال أن السكر زال تماما وأننى في حال طيبة، وأنه يجب على أن أتبع نظاما جديدا في الأكل.. إنها تأكل طعامى هذه المسعورة، تحولت في الأيام الأخيرة إلى كلب ينهشنى، أخذت أول الأمس قمصان نوم زوجتى، اليوم أعطيتها عدة جنيهات وأكلت فطورى، وغذائى وقالت:

- أين الدهن أيها المعتق؟

انتابتنى الرغبة أن أطردها، لكننى تذكرت تفاصيل جسدها اللدن.. وجدت أخيرا أن أفضل حل هو أن أذهب وأقضى أسبوعا عند ابنتى.. قلت لزوجتى في المساء:

- من الأفضل ألا تأتى الممرضة فقد تماثلت للشفاء
- والحقن؟
- معظم النتائج في التحليل أفضل هذه الأيام
- كما تشاء..

شعرت بالشوق الجارف بعد أن ذهبت.. قبلتنى قبلة الوداع قبل أن تذهب.. قالت:

- لو حدث شئ بيننا فهو نزوة، أنا في عمر ابنتك..

شعرت أننى افتقدها حين أتى صباح اليوم التالى ولم تأت.. في المساء وجدت نفسى في سريرى أتذكر صدرها وبقية أجزاء جسدها..

أصابتنى حمى من الرغبة أن أرى صدرها العاجى مرة ثانية.

وددت أن أحدث زوجتى أن تعيدها.. لم تنتبني أى رغبة في زوجتى.. كل ما أصابنى هو أن أفكر في مناطق الفتاة، وفي اللحظات التى مرت بنا، أحضرت يوما إحدى الكراسات وكتبت بعض لقاءاتى الأولى بها وحوارها الصريح معى عندما أعدت قراءة ما كتبته بعد يومين شعرت بالاشمئزاز والنفور من نفسى فمزقت الكراس إلى قطع صغيرة جدا وحرقتها.. تناسيت هذا الأمر أو حاولت، لكن كان كابسا فوق رأسى.. كان أشد ما أدهشنى أننى فتحت ذات يوم درج مكتبى.. بعد أن استرددت صحتى تماما فوجدت كراسا يشابه نفس الكراس فالبقعة الزيتيه التى وقعت على الكراس الأول كانت في مكانها تقريبا عندما فتحت الصفحة الأولى وجدت ما سطرته في الكراس الأول.. قرأت.. لم تكن نفس الكتابة.. كانت أكثر تفصيلا ودقة.. ثانية بثانية حتى كأن كاتبها سجلها بعدسة سينمائية. من الغريب أن الخط خطى.. لا أتذكر يوما أننى كتبت شيئا في هذا الكراس، بعد أن أحرقت الكراس الآخر..

بل الأدهى أن أسلوب الكتابة هو أسلوبى إلا أن دقة الكتابة لم تكن من صفاتى، قرأت الكراس بأكمله، ترى من كتب هذا.. من المستحيل أن يكون أنا، ومن المحال أيضا إلا أن أمزق الكراس فلم يتمزق.. أمر غريب.. رششته بالكيروسين فلم يبتل. حاولت أن أشعله فلم يشتعل.. خفت أن ألقيه من النافذة أن يعثر عليه أحد فتكون فضيحة خاصة أن اسمى مكتوب عليه، وضعته تحت الصنبور حتى يبتل وتختلط الكلمات، فلم يحدث.. ذات يوم أخذته وانطلقت نحو الشاطئ.. ألقيته في مكان من السهل أن يغوص فيه لكنه ظل عائما مدة من الوقت.. انتابتنى الرغبة أن أخلع ملابسى وأحضره فمكانه في المنزل خير منه عائما ينشر الفضيحة. جرفته الأمواج بعيدا حتى اختفي عن ناظرىّ.. شعرت بالراحة والقلق.. عدت إلى المنزل.. في المساء فتحت درج المكتب فوجدته، أغلقت الدرج بسرعة فزوجتى جالسة أمامى، قالت:

- لماذا طرقت باب الدرج هكذا؟
- المزالج في حاجة إلى تزييت.

قامت لتأتى بالزيت، فقلت:

- لا داعي.

خرجت، أخرجت الكراس لأخفيه، لكنها دخلت وكان في يدى فلم أحاول مواراته، وضعت الزيت على المزالج.. أدهشنى أنها لم تلحظ الكراس وهو في يدى، نظرت إلىّ وقالت:

- يبدو أنك تحمل شيئا بين يديك

نظرت إلى يدى وقلت:

- أحمل كراسا قديما ليس بذى أهمية..
- عن ماذا تتحدث؟
- الكراس ألا ترينه؟
- لا أرى شيئا، هل أنت متعب؟
- ألا ترين الكراس؟
- أنت في حاجة إلى الراحة، قم لتستريح.

قمت ووضعت الكراس تحت إبطى، نظرت إلىّ في استغراب وبادلتها نظراتها بدهشة، ثم خرجت غير عابئ بها..

في اليوم التالى رأيت الكراس على المكتب أمامى.. في المقهى وجدته على المائدة عندما استدرت خلفي وجدته سائرا خلفي.. خيل إلىّ أن رجلا يطاردنى نظرت إلى من حولى عسى أن يروه، لم يكن أحد يراه سواى.. جريت، رأيته يجرى خلفي.. أخذت أعدو وهو يعدو ورائى..

التقرير السابع

تحررت الفتاة.. أصبحت تفعل كما يفعلون ومثلما يفكرون.. جرفوها إلى تياراتهم ولم تعد لمجالستى، لعن الله أباها ولعن من دفعها إلى ذلك.. قال يوما بأنفته الغريبة:

- لماذا لا تتركها على سجيتها. أنت تسجنها..؟

أعرف أن أفكارى لا تعجبه، قلت له:

- لا أرغمها على شئ، فهى حرة أن تفعل ما يحلو لها، وهى تلازمنى طيلة وقتها.

- واجبك أن تتركها تفعل كالآخرين.

- ماذا يفعلون؟

- أنت تعرف

- إنها تحب الجلوس معى وترى أن حريتها في صحبتى.

طرق على المائدة بعنف، وقال:

- ليس هكذا تعامل الصغار، فلنتركهم يشعرون بالحياة. ولت أيامك يا عمى..

لم يكن يضايقنى في قلة أدبه سوى العبارات التي تشعرني بالغثيان، قلت لزوجته يوما:

- إذا لم يكف عن تلك الكلمات فسأخرج من المترل ولن أعود.

حاولت يومها أن قدئنى بكلماقا المعسولة، أقمت معهم أربع سنوات بعد أن ماتت أمها بعامين، ليس لى أبناء عداها، قال يوما وهو يتصنع:

- يا عمى، أنت سريع الغضب.
- "أرجوك ألا تحدثنى بهذه اللهجة".

استغفرت الله وأنا أزفر، كنت أعرف أنه يستميلنى، فهو يستعمل سيارتى طيلة يومه، أما أنا فمنذ اشتد علىّ المرض لا أخرج سوى مرة كل أسبوع، قالت الفتاة يوما:

- إذا لم أصل فرضا من الفروض فسوف أؤديه في النار؟

قلت مؤكدا:

- أليست فروضا، طبعا.

هزت رأسها في تثاقل.. هي مواظبة على الصلاة ، ولا تترك فرضا أو سنة، قالت يوما:

- أود أن أذهب معك إلى المسجد.
- من الممكن أن تذهبى وتصعدى إلى الدور العلوى.

تعرف أنى عندما أصلى في الجامع فإن الكثير من مؤميه يجتمعون حولى ليستشيرونى في أمور الدنيا والدين، سألتها يوما:

- هل صليت الظهر؟
- الحمد لله.
- وذكرت أسماء الله بعد صلاتك؟
- أجل، وسبحت.
- حسناتك كلها مكتوبة عند الله.

كانت يومها في الثانية عشر من عمرها، لم تكن جدهما قد ماتت، قلت:

- أين النرجيلة؟

أحضرها لى فأخذت أعدها، كنت يومها أشعر أن هذه أفضل من السجائر وأنها الوسيلة الوحيدة للتخلص من التدخين، قلت:

- هى بديل المتغة

أخرجت لها الورقة فأحضرت الجرن ثم بدأت تطحن الحجر، قالت وهى تقطع ورقة المتغة؟

- هل طعمها جميل يا جدو؟
- مزاج.

مسكينة الفتاة، فقد جرفها تيارهم وبدأت تفعل كما يفعلون، وأصبحت ترتدى مثلما يرتدون، قالت أمها يوما:

- لها الحق أن تمارس حريتها، وأن تعيش كالأخريات وتفعل مثلما يفعلون..

قلت:

- وإذا كان الآخرون ينهشون أنفسهم فهل تفعل مثلهم.
- يجب ألا تخرج عن دائرة الناس.

قالت حفيدتى يوما:

- هناك زميلة تريد أن تذاكر معى دروسها وأن تشرح لنا بعض المسائل الرياضية، هل آت بها؟

كنت أعرف أن عدد صديقاها قليل، وافقت لأشرح لهما، راعنى الفارق بين الفتاتين، حفيدتى جميلة هادئة، ربطت شعرها خلف رأسها في تسريحة بسيطة وقد خلا وجهها من المساحيق، أما الأخرى فهى أقل جمالا وأكثر تأنقا.. دهشت هل جاءت لتتعلم أم لتقابل عشيقا..؟

جلست حفيدتى صامتة لا تتكلم ولا ترفع عينيها من فوق الكتاب الذى أشرح لهما منه ولا تبدى أية حركة، أما الأخرى فتمد يدها بين اللحظة والأخرى إلى شعرها لترفع إحدى جدائلها الصغيرة العديدة إلى الخلف ثم تدفعها ثانيا إلى الأمام.. قلت للفتاة بعد أن ذهبت زميلتها:

- ما رأيك فيها؟

- طيبة، وذات سلوك حسن، لكننى لاحظت أن ملابسها لا تعجبك.

- إنها متكلفة..

- ماذا تقول لو رأيت الباقيات؟

بعد عدة أيام كان هناك حفل زفاف في محيط العائلة، قالت قبله بيومين:

- أبى يغصبنى أن أذهب وأنا لا أحب هذه الأجواء..

قلت:

- حاولى أن تذهبى وتفرحى كالآخرين..

- إنه عالم لا يعجبنى خاصة ما فيه من صخب..

وافقتها بدورى، في يوم الحفل امتلأت الشقة بأبناء وبنات عمومتها، تغير حال الشقة، جلست في غرفتى بينما اكتست الشقة بتعليقات الفتية السخيفة وضحكات الفتيات اللاذعة، وزقزقة الصغار وشقاوتهم، جاءوا ليأخذوها معهم، أما هى فلم تود ذلك، عندما عاد أبوها من العمل دخل على وسألنى:

- لماذا لا تأمر الفتاة أن تذهب إلى الفرح؟

قلت:

- فلتذهب كما تشاء فأنا لا أمنعها.

دخلت الفتاة ونحن نتحدث، قال لها:

- لماذا لا تريدين الذهاب معهم؟

قالت:

- لا أحب هذه الأجواء.

صاح بصوت عال :

- ألست مثل كل هؤلاء، هل تنقصين عنهم شيئا؟

نظرت إليّ كأنها تريدني أن أتدخل، فقلت له:

- اتركها على حريتها.

دخل أحد أبناء عمومتها وهو يقول:

- لا يعجبني هذا السلوك، يجب أن تخرج وتتحرك بدلا من الحبس داخل المترل.

قلت:

- بعض الناس تجد حريتها في سجنها.

قال وهو يشيح بذراعه:

- دعنا من الفلسفة، هيا يا فتاه إلبسى، هيا.

كانت لهجته فيها الكثير من لمحات التهديد، قلت باستسلام:

- أنا لم أجبرها، وأنتما تعرفان ذلك.

التف الصغار حولنا ليشاهدوا المسرحية وقد تعلق صغيرهم بكتفي وأنا جالس فوق السرير.

قالت الفتاة وفي صوتها رنة أقرب للبكاء:

- حاضر..

خرج الرجل دون أن يتفوه بكلمة ثم خرجت الفتاة خلفه وبقى بعض أبناء عمومتها في الغرفة بينما اندفع البعض وراءها.

دخلت الفتاة غرفتى بعد قليل بملابس خروجها، بسيطة رقيقة، قالت وهى تربت على فخذى:

- لا تغضب يا جدو، أنت تعرف أننى أكره أفكارهم.
- اذهبى يا فتاة. يجب أن تمرحى كالآخرين.

تعرف أن هذه مظاهر كاذبة، قالت وفي لكنتها شئ من الحنق:

- ماذا أفعل وقد عودتنى على طاعة الوالدين؟

قبلتنى وخرجت، كان أشد ما يعجبنى فيها شاعريتها الغريبة وهدوءها الأقرب إلى السكون، خرجت ومعها الضجيج، وبعد قليل خرجت ابنتى ومعها زوجها وبقيت وحدى في الشقة.

في الحادية عشر مساء عاد الثلاثة من الحفل، انتظرت أن تأتى فور دخولها لتلقى علىّ تحية المساء ولتحكى لى كل ما رأته وسمعته في الفرح، لكنها لم تفعل ناديتها فلم أسمع لها صوتا..

عندما كررت النداء أحسست بها تهرول نحو غرفتى.

قالت:

- أيوه يا جدو "مساء الخير"
- ألم تسمعينى؟

كانت غير الفتاة التى خرجت من نفس الغرفة منذ ساعات، أمسكت بالمنشفة بيديها وأخذت تمسح وجهها المبلل وهى ترد:

- كنت أغسل وجهى.

كان باديا أنه – وجهها – لمس المساحيق وأن عينيها عليهما آثار بعض الريميل، ضحكت وأنا استغفر الله من فعلتها، قلت:

- هل سعدت اليوم؟
- قليلا.
- لا. بل كثيرا. أليس كذلك؟

اقتربت منى وهى تمط شفتيها، ثم جلست أمامى وقالت:

- رأيت اليوم معظم أقاربى.

- حسنا، العقبى لك.

ضحكت، قلت وأنا أنظر إلى شعرها:

- يبدو أنك جعلت الفتية يديرون رؤوسهم من الإعجاب..

ابتسمت وهى تمد أصابعها لا إراديا إلى شعرها تتحسس جدائلها فابتسمت بدورى، لم تحاول أن تغير تسريحتها أسبوعا كاملا، بدت متأنقة إلى حد غريب، قالت مرة:

- أشعر بشئ جديد يتسرب داخلى، تصور أننى في الثامنة عشر ولم أغير تسريحتى مرة واحدة، شعرت الآن بمدى تفاهة الضفائر والكعكة.

مدت يدها لا إراديا إلى شعرها، شعرت بالرضى تدريجيا بعد أن كان هذا لا يرضينى، بدأت أجد لنفسى مبررا، وهو أن سلوك الفتاة ونفسيتها أهم شئ بالنسبة لها.

بعد أسبوع جاءت بنات عمومتها ثانية، أخذنها في غرفتها، عندما دخلت غرفتى بعد نصف ساعة، قالت:

- الحق يا جدو. يريدن أن أذهب معهن إلى السينما.

- هل جننتن يا فتيات؟
- لماذا يا جدو؟

هؤلاء الفتيات يخرجن وحدهن ويذهبن الى السينما والنوادى ويعدن إلى متزلهن في أوقات متأخرة من الليل. قلت مترعجا:

- السينما حرام يا فتيات.

تأوهت إحداهن بطريقة راذلة وقالت:

- السينما حرام، عجبى لما نسمع.

قالت حفيدتى:

- حدثهن بهذا فسخرن منى.

وجهت حديثى للفتيات الثلاثة:

- ألا يكفيكن المناظر الداعرة بالكفر والزندقة. أستغفر الله العظيم

هنا دخل زوج ابنتى، مسى علينا وسألني:

- في أية هداية تحدثهن اليوم؟

شممت السخرية في نبرته؛ فقلت بجدية:

- أحدثهن، أن السينما من المحرمات.

- ومن قال هذا؟
- أتعجبك مشاهد الدعارة وقلة الحياء التى تملأها؟

لمحت على وجوه الفتيات الرضى لانضمام الرجل إليهن وقالت إحداهن له:

- حدثه يا عمى إنه لا يصدق.

نظرت إلى حفيدتى، كنت أعرف أن كل هؤلاء جراثيم تلتف حولها ويريدن إصابتها بأمراضهن، قالت:

- إنه فن وليس إباحية.
- أناس عرايا يمارسون المنكر امام أعيننا ونسمى دعارتهم فنا.

احتددت وعلا صوتى:

- ما أفهمك أنت وهن في الفن، عندما تفهم تعال حدثنى.

ضحك الرجل وقال:

- حسنا، سأغير ملابسى وأناقشك، لكن دع الفتاة ترتدى ملابسها وإلى أن تعود سأكون قد أقنعتك.

غلت الدماء في عروقى، قلت:

- أنت تقنعنى أيها الصعلوك.

أشار لابنته وقال:

- هيا يا فتاة اذهبى وارتدى ملابسك.

بدت الصغيرة في وضع حرج، قلت له:

عجبا لك يا زمن، قديما كنا نضرب نحن الفتيان عند رؤيتنا لخيال الظل، والآن الآباء يجعلون بناقمن تذهبن للسينما وحدهن، يا سيدى إن لك درة لا توجد مثلها فلا تفسدها.

قال:

- البنت هكذا ستصبح معقدة.

بعد نقاش قصير قلت وقد نفد صبرى:

- اذهبى يا فتاة إذا شئت.

لم تكن الفتاة تود، لكنها خرجت، عندما عادت كانت الساعة تدق اثنتى عشرة دقة، حكت لى في اليوم التالى قصة الفيلم، بدت سعيدة راضية وتمنت أن تذهب ثانيا. في الأسبوع التالى خرجت معهن من جديد، عندما عادت عرفت أنها مرت على الكوافير قبل أن تذهب إلى السينما.. قالت:

- هل ارتكبت إثمًا يا جدو؟

قال أبوها:

- هل التجمل أثم، الله جميل يحب الجمال.

قلت:

- هناك فرق بين الجمال والفجور، ابنتك جميلة دون كوافير، يا فتاة أبوك يود أن يجعلك عروس تغرى الشباب وهو يعرف تماما أنه عندما تزوج أمك كان يبحث عن الأصل الطيب والأخلاق الحميدة لا الجونلة القصيرة والريميل والشكليات الزائفة، أليس كذلك.

وجهت سؤالى إلى الرجل فبدا متلعثما وقال:

- تغيرت الظروف.

- ننشر الفجور ونقول الأمس غير اليوم، ليرحمنا الله من أفكار الجيل الجديد، هيا يا فتاة..

شوحت بيدى لها ولأبيها وأكملت:

- افعلى ما تشائين، أنا ليس لى حق على الآخر، لكن لى الحق أشاهد حفيدتى هكذا.

أخفضت الفتاة رأسها، وأولتنى ظهرها، وخرجت إلى السينما.

بدأت تهتم بمظهرها أكثر، تنظر كثيرا إلى المرآة، لاح منها بعض النفور وهى تدبر لى المتغة.

لم أكن في حاجه إليها كى تدق، ولكننى كنت أشعر بالسعادة وأنا أراها جالسة على الأرض وقد وضعت الجرن الصغير بين قدميها وأخذت تدق في تمهل وبين الفينة والأخرى ترفع إلىّ الجرن قائلة:

- هكذا؟

فأطلب منها أن تكمل، بدأت أهتم بالحركات اللا ارادية، تعدل شعرها عندما أشرح لها بعض الدروس، قلت لها:

- السينما تضيع وقتك، وبنات عمك لسن طيبات الصحبة.

قالت:

- ليست السينما كما تتصور يا جدو، والكوافير ليس مأوى للآثمين.

طرقت بيدى على فخذى، وقلت:

- آه، وصلنا الى نقطة مهمة، بدأت تقتنعين أن تلك الأماكن طيبة، وأننا يجب أن ندخلها كما ندخل المساجد، لك حق أن تدافعى عنها، الكوافير يصفف الرجل فيه شعر المرأة، ويحسس على ما يمكن الوصول إليه من جسدها، لا يا صغيرة أنت مخطئة، اتق الله واقرأي كتابه وسوف ترين أن ما يحدث منكر فعلا.

أحنت رأسها وقد بدا عليها الأسى، لم أحب يوما أن تكون بهذه الصورة، كنت أحبها عندما تكون سريعة البكاء، أما الآن فقد خيل إلىّ أنها تغالب دمعة غير منسكبة.

قلت لها بعد يومين:

- ما رأيك أن نخرج معا؟

شعرت بالسرور وقالت وهى لا تصدق نفسها:

- هل ستستطيع؟

كانت تفرح عندما تخرج معى، تمسك عصاى في يدها وتضع يدها الصغرى تحت ذراعى وأتكئ عليها، ونمشى معا، هادئة لا يكاد يسمع لها صوت، في المكان الذى تلزمه، لذا كنت أخاف أن تسير في الدرب الذى يفضله أبواها. في الأيام الأخيرة، قالت أمها:

- يا أبت بهذا سوف توقف سوق الفتاة.

قلت محتدًا:

- هل البنت المتكاملة أصبح سوقها بائرا؟

حادثتنى طيلة ساعة أن أحاول تشجيع الفتاة أن تغير من سلوكها ومواقفها إزاء صديقاتها، لكننى كنت على موقفي أن الحرية التى تتحدث عنها هى الحرية التى أفهمها وأننا يجب ان ننصحها أن تسير على الصراط المستقيم.. في الطريق سألتها:

- هل تحبين أن تكونى مثل هذه؟

فتاة قصيرة الشعر، ترتدى بنطلونًا ضيقا وقميصا يكشف عن جزء لا بأس به من ظهرها وكتفها، أمسكت بيدها حقيبة صغيرة تطوحها بدلال، قالت:

- لا هذه، ولا كفلاحة يسخرون منها في المدن، الاعتدال أهم شئ.
- ألست معتدلة؟
- لم أقل شيئا. لكن يجب أن أكون أكثر فهما للأشياء.
- افعلى ما تشائين وحدثينى عن مشاعرك تجاه كل خطوة تخطينها، اتفقنا؟

قررت ألا أتدخل في أمورها، اتفقنا أن تفعل ما يحلو لها، بدأت أحس أنها تنفصل عنى شيئا فشيئا..

دخلت علىّ وهى ترتدى رداء جديدا يوما. وقالت:

- أعجب هذا زميلاتى، صفقن لى.
- وهل يرضى هذا ربك؟ ألم تعلمى أن أهم شئ هو النية؟ علمتك ألا تكشفي عن ساقيك.
- الكل يفعل هذا، وأنا أقل واحدة.

- السجناء يسعدون عندما يدخل عليهم مسجون جديد. والمؤمنون يفرحون عندما ينضم لهم مؤمن جديد، وقد أصبحت أنت في زمرة القبح.
- ماذا تعنى؟
- لست معجبا بهذا الرداء.
- لكنه يليق بى.
- أنت يليق بك الكمال، أرثى لك فقد أفسدك أبواك.

خلعته عنها ولم تعد ترتديه، لكنها ظلت تواظب على الذهاب إلى الكوافير والسينما، لا أعرف لماذا قل تذمرى – على مر الأيام – إزاء ذهابها إلى هذين المكانين، غلبني الرضوخ، كنت أريد أن أموت تاركا فتاة طاهرة في هذا العالم خاصة بعد أن خيل إلىّ أن الكل يتحدث عن النقاء والطهارة ويصفون بها أنفسهم في الوقت الذى يحتاجون إليها.

قلت يوما لابنتى:

- فرق كبير بين جيلك المحافظ، وجيل ابنتك.
- أنت متشائم يا أبي، الإنسان طيب دائما.
- حمدا لله أننى لم أرزق بأولاد كثيرين، وإلا مت كمدا، أعرف أن أحفادى تدثروا بالرزيلة.

أصبحت أدق المتغة بنفسى، خاصة أن الصغيرة بدأت تغلف تعليلاتها بأنها تذاكر، كنت أشعر بالرضاء، وأنا أراها تحتفظ بمستواها الدراسى، لكنها كانت أيضا تتقدم في انتقاء ملابسها وتغير

تسريحتها، تنتابها هواية جديدة وهى حب الأغانى الراقصة، دخلت يوما غرفتها فوجدتها ترقص على إيقاع إحدى الأسطوانات بينما أمها تضحك وتصفق.

قلت لها:

- يا فرحة أمك بك يا فتاة.

التفتت إلىّ مترعجة وهى تقضم شفتها، ثم خرجت من الغرفة مسرعة، قلت لابنتى التى بدت ضجرة:

- أيعجبك هذا، أترقصينها؟
- كل الناس يرقصون يا أبي.

لم أرد عليها، وخرجت. دخلت غرفتى فوجدت الفتاة، قالت بخجل ذكرنى بأيامها الخوالى:

- هل أنت غاضب يا جدو؟
- اذهبى فسوف أشترى لأبيك طبلة، اخرجى، أستغفر الله.

إنها أول مرة أعاملها بجفاء، خرجت بينما لازمت مكانى أحاول أن أهدئ من ثائرتى وأنا أقرأ الفاتحة بأن يهديها الله.

وجدت نفسى في حيرة عندما دخلت علىّ تسألنى:

- ألن تتناول عشاءك يا جدو؟

لم أرد، قالت:

- أعرف يا جدو أنك ساخط، وأنا نفسى لا يعجبنى هذا السلوك، لكن يا جدو...

اقتربت وهى تحاول أن تجعل كلامها مؤثرا:

- لكن زميلاتى يسموننى "عم الشيخ" الكل يسخر منى يصفوننى أننى معقدة، أنا يا جدو غير مقتنعة بكل هذه المظاهر، لكن يجب أن أفعلها، عيون الآخرين تأكلنى عندما أرتديها، وعيونهم تأكلنى أيضا عندما لا أرتديها، وعيونهم تقتلنى عندما أرتدى ملابسى العادية. أتمنى أن أكون شيخة لكنهم.. أنا مرغمة يا جدو.

كانت تلوح بيدها في اتجاهات عديدة ، كأنها تمثل في فيلم من الأفلام التى تشاهدها في السينما والتليفزيون.

سألتها بصوت خافت:

- أين تعلمت كل هذا؟ لو سرنا على كلام الناس، كلنا سنذهب إلى الجحيم.

- أنت ما زلت ساخطا؟

- صه، أعرف ما ستقولين، من أننى لست مستعدا أن أقتنع برأى فتاة تصغرنى بخمسين عاما، هل تفهمين؟ فبالرغم من أننى أعرف أنك على غير حق. فإننى لن أقتنع. لم تتعلمين بعد ولم تعرفين الحياة بعد. لن أسمح لفتاة ساذجة مثلك أن تغير ما تعلمته طوال السنين.

جلست على الطرف الآخر من السرير وهى تتنهد وقد انعكس على وجهها كل ما في داخلها من قلق. حاولت أن تتكلم فخيل إلىّ أنها لا تجد الكلمة، قالت:

- إذن فلأفعل ما يحلو لى اتفقنا على هذا من قبل.

هززت رأسى موافقا، وهى تكمل:

- لتعرف من الآن أننى سأرتدى ملابس ما وسأسلك سلوكا ما، وأنك كما تقول كل الآخرين ذاهبون إلى الجحيم، فليغفر الله ذنبى.

ثم خرجت.

أجل، تحررت الفتاة، أخذوها بالأمس إلى حفل من الحفلات التى بدأت تذهب إليها أخيرا، أصبحت فتاة غير التى هيئ لى أن الشياطين ترقص حولها وتغنى لكل ما تفعله. فأصبحت كدمية، أخذوا يضعون عليها الأصباغ حتى أضحت إحدى لوحات الفن السريالى وبدت في حركاتها جامدة كتمثال موسى الذى لم ينطق بشئ حتى الآن، قبل خروجها مرت ببابى، وكنت جالسا أستمع إلى بعض الآيات الكريمة من القرآن، ثم قالت: هاى جدو. باى. ثم ذهبت.

انتهت التقارير السبعة.. لا أعرف ما الذى انتابنى من أحاسيس وأنا جالس اقرأ حتى دقت الساعة ثلاث دقات من صباح اليوم التالى، وضعتهم جانبا وذهبت لأنام خوفا من التأخر على العمل، لم أستطع النوم فقد اختلط علىّ كل ما قرأت عنهن في التقارير. أصبحت خطيبتى سبع فتيات مختلفات عند سبعة أشخاص.. لا شك أنها تختلف عندى كثيرا عما ذكروا، ترى ماذا تقول هى الأخرى عندما تقرأ التقارير، وترى ماذا يقول أصدقاؤنا حول صورة لى أنا نفسى، هل كانوا سيتكلمون بنفس الحماس؟

لم تغادرني الانفعالات التى تركتها التقارير طوال يومين، كنت ألاحظ وجود الناس وبى من الرغبة أن أوزع عليهم الصورة ليكتبوا تقاريرا جديدة، ولكنى خفت أن أمر مجددا بتلك الظروف التى مررت بها، إلى أن حصلت على تقاريرى السبعة.

تذكرت أن الكثير من الذين كتبوا التقارير كانوا يتناقضون مع زملائهم والذين يحوطونهم، وأن بعضهم غير راض تماما عن البيئة التى يعيش فيها.

تساءلت: إلى أى حد يمكن أن تصل درجة الاختلافات بين فردين من أفراد التقارير.. لنفرض مثلا الشاب الذى يبحث عن عروس والفتى الجامعى، أو بين هذا في سلوكه وبين الرجل المتدين. أو بين ذلك وبين رجل الستين، ترى ما مدى الاختلاف في النظر إلى أمور أخرى بين

الرجل الذى يرغب في شراء سيارة وبين ذلك الذى يهوى شراء أقمصة شفافة لزوجته؟

من الأفضل أن يلتقى اثنان من أبطالنا بالمصادفة يتحادثان عن شئ واحد لتتأكد لى فاعلية التقارير. ترددت أن أتصل بأى منهم فقد عزمت على أن استلامى التقرير منهم هو النقطة الفاصلة في علاقتى مع أيهم، لكن ذلك التضارب ألح علىّ كثيرا أن أجعل أى اثنين منهم يتقابلان خاصة أن أحدهم يود خطبة خطيبتى، أما الثانى فهو طالب الجامعة.

ذهبت إلى مترل طالب الجامعة فلم أجده، تركت له ورقة فحواها أن يأتينى المترل آخر الأسبوع في ساعة حددهًا له وتركت العنوان، في آخر الصفحة حدثته أن الأمر مهم. عندما ذهبت إلى مترل شاب الثلاثين وقابلته رحب بى وقد ارتسمت على محياه ابتسامات غريبة، أتى بأمه لتحيتى، امتزج اللقاء بكثير من التكلف، حدثته عن موعد يزورنى فيه عند نهاية الأسبوع فوافق، نفس الموعد الذى حددته لطالب الجامعة، أكدت عليه احترامى للمواعيد، عندما ودعنى على السلم وقفت أمه معه.

....

وأنا عائد من العمل وجدت نفسى أمر أمام مترل عجوز السبعين، ركبت المصعد إلى شقته. كان وحده. اندهش حين سألنى.

زالت دهشته بعد أن تحادثنا لفترة من الوقت، دعوته بلباقة لزيارتى، لكن الرجل كان لحوحا لمعرفة السبب الذى جعلنى أذكره رغما عنى. قال في نهاية حديثنا:

- أنا موافق.. ولكن..

رفعت رأسى في تساءل فأكمل:

- أنت تعرف أن المرض يدهمنى وإذا تأخرت قليلا فاعذرنى فأنا على غير وفاق مع الصغيرة التى تصحبنى في مثل هذه الأمور.

قلت:

- من الأفضل أن تأتى وحدك في سيارتك حتى لا تسبب إحراجا لها.

في المساء قررت أن أترك أصحاب التقارير السبعة حتى تكون المناقشة أكثر إثارة خاصة أن اثنين وافقا، أما الباقون فمن السهل إقناعهم، كنت مترددا أن يشكوا في شئ، خاصة أننى أحدثهم عن علاقاتهم الخاصة، وقررت أن أقطع صلتى بهم فور استلامى التقارير.. مع ذلك وجدت قدماى تسوقانى إلى المقهى التى يجلس عليها عجوز الستين، قابلنى باستحسان وكان جالسا يقرأ كتابا في مكان قصى عن الضجيج.

سألته عما يقرأ، ثم تناقشنا في كثير من الموضوعات الأدبية حتى طالت بنا السهرة، حدثته عن فكرتى بطريقة أكثر إيضاحا من حديثى لعجوز السبعين، تردد في أول الأمر..

اليوم الأربعاء.. اتصلت بالأشخاص السبعة، شاب الثلاثين أول من وصل، بدا الحياء والقلق على عينيه حينما عبر الصالة كأنه يبحث عن شئ كنت أعرفه، بعد دقائق جاء رجل الستين وكان بادى الأناقة، قبل دخوله سمعت صوتا على السلم فطلبت من الرجل الانتظار قليلا على الباب إلى أن صعد الرجل فصافحته وصافح بدوره ضيفي الثانى، لا أعرف ما الذى ارتسم على وجه كل منهما، كأن هناك شيئا غريبا بدا عندما تصافحا.. لم أتساءل عن كنهه، دخلت معهما إلى غرفة الاستقبال، عندما تصافح الثلاثة ارتسمت علامات الدهشة على الوجوه وقبل أن أتصفح الاستغراب والوجوه جيدا طرق باب الغرفة ودخلت أختى الصغرى تقول:

- هناك رجل وابنه عند الباب.

استأذنت وأسرعت لأجد رجل الخمسين وطفل العاشرة، حييتهما ودخلت معهما إلى الغرفة، بدت ساكنة كأنها خاوية، علت الدهشة عليهم جميعا ثم انتقلت إلى الضيفين الجديدين.

شعرت بدوار غريب، لم أكن لاحظت شيئا غريبا بعد أو لعلى لاحظت ما كنت غافلا عنه. جلسنا جميعا في حالة وجوم تام وكلنا ننظر إلى بعضنا، جلست في ركن يمكننى منه رؤيتهم وهم يتحدثون، لم أكن سعيدا فشيخ السبعين وفتى العشرين لم يحضرا حتى الآن، تأكدت الآن أننى كنت أعمى وغريبا.

في هذا الجو الذى بدا على أن صاحب المترل غير مألوف، رأيت شاب الثلاثين يتململ في مكانه وينظر الى رجل الستين نظرات المندهش. كان ينظر بدوره إلى رجل الخمسين، وبدا عليه – الشاب – الرغبة في الكلام ولكنه ما لبث أن أقفل فمه كما لو كان يحتبس تلك الرغبة. أردت أن أفاتحه في أفكارى ولكن طرق جديد على الباب جعلنى أقوم من مكانى، قالت أختى:

- هناك شاب صغير ينتظرك على الباب

كان ينتظر عند باب المترل وليس على باب الشقة، وجدتني في حيرة وفضلت أن أستقبله. عندما دخلنا الغرفة كانت الدهشة قد خفت حدهّا لأنه كما بدا أن حوارا دار بين الحاضرين.

سألت شاب الثلاثين بعد أن جلس الفتى:

- ماذا عنك؟

أخذ ينظر إلى الضيف الجديد الذى بدا مرتابا لهذا الجو الغريب، ثم قال مشيرا إلى رجل الستين:

- أعتقد أنني قابلت الأستاذ من قبل.

مط الرجل شفتيه واعتدل في جلسته كأنه يود أن يقول شيئا إلا أن الشاب عاجله:

- أنت تشبه أبى طبق الأصل، لو لم أكن قد تركته في المترل لتوى لتأكدت أنك هو.

دامت لحظة صمت أراقب خلالها الفتى الذى هيأ لى أنه بدأ يتأقلم شيئا فشيئا مع هذا الجو الغريب، قال الشاب:

- لكن أبى اكبر منك بعدة سنوات..

قاطعة الفتى:

- أنت بالفعل تشبه أخى.

خرج رجل الخمسين عن صمته وسأل الفتى:

- هل أنتما شقيقان؟

نظر الفتى إلى الشاب وهز رأسه وعلامات الدهشة ترتسم عليه:

- لا، من الغريب أن هذا السيد يشبه والدى.

ضحك رجل الستين قائلا:

- إنه لشرف أن يشبهنى شابان مثلكما بأبيهما، لكن للأسف ليس لى أبناء سوى فتاة متزوجة منذ عشر سنوات.

قال الفتى مقاطعا رغبة الشاب أن يتكلم:

- أنت لست هو بالطبع (وضحك) أنت تشبهه فقط فأبى الآن في الستين من عمره.

- كم سنة تعطينى؟
- خمسة وستين عاما
- خطأ حدسك بعامين.

طرق الباب. دخل قبل أن أقوم رجل السبعين، أنيق، حليق الذقن، حيانا وهو يبتسم ثم جلس بجانبى:

نظرنا جميعا إليه في دهشة لا تخلو عن تلك التى ارتسمت على الوجوه، إلى الباقين الذين جلسوا يبادلونه نظرته بشئ من الذهول، صاح الطفل فجأة:

- هل خرجت من القبر يا جدى؟

انتفض الرجل لكلمة قبر وأشار الى نفسه بانزعاج قائلا:

- أى قبر تقصد؟

حاول هذا ألا يرد فقال العجوز:

- هل ذكرتك بجدك؟

بدا الصغير متلعثما فعالجه العجوز أن يرد، أما الباقون فقد كانوا يرقبون المشهد كأنهم في مسرحية غير مفهومة قال:

- حسبتك جدى الذى مات قبل عامين
- هل كان يشبهنى؟

هز رأسه بالإيجاب.. قال بعد برهة:

- سمعت أن الروح تتجسد ثانيا في إنسان آخر.

قال العجوز:

- لم أشعر يوما أن روحا طرقت على الباب لتعيش معى، رحم الله جدك، هل أبوك على قيد الحياة؟

- أجل..

قاطعه شاب الثلاثين:

- وأبي أيضا، إنه يشبهك تماما.

نظر العجوز إلى الشاب وقال:

- هل أنت أبوه؟

هز الشاب رأسه بالنفي، فقال العجوز:

- إذن فأنت أخوه؟
- لا، أنا لم أره من قبل
- لكن الشبه بينكما كبير
- لم أره من قبل
- ولا هذا؟

أشار إلى شاب العشرين فنظر إليه شاب الثلاثين ورد الأول:

- لا، ليس أخى.
- ألا يقرب لك؟
- قط
- ولا هذا؟

أشار إلى رجل الأربعين الذى يتحدث مع رجل الخمسين، قال طالب الجامعة:

- ليس لى أقرباء هنا قط.

قال الرجل بصوت عال وكأنه يوجه كلامه إلى جميعهم:

- يا سادة، ألا يوجد بيننا أى أقارب أو إخوة؟

انتبه الكل إليه وسمع همهمات تعبر عن النفي، فقال ثانية:

- غريبة، ألا يوجد بيننا من يعرف الآخر قبل اليوم؟

سمع أيضا همهمات تعبر عن النفي قاطعه طالب الجامعة قائلا:

- نحن يا سيدى مندهشون حتى قبل أن تدخل، فبعضنا يسأل الآخر بأنه يشبه أباه والآخر يؤكد أنه لم يره من قبل.

سأله الرجل:

- وماذا يعمل أبوك؟
- في البحر

قاطعه شاب الثلاثين قائلا:

- ولهذا أتساءل أين رأيتك، يبدو أن أباك صديق لوالدي فقد كان يعمل في البحر منذ خمس سنوات..

لقد انكشف اللغز

قاطعة الصغير:

– فهمت أخيرا ، فأنا أعرف أن أبي ينوى العمل في البحر.

– غريبة، صاح رجل الخمسين، يبدو أن العالم ضيق للغاية.

سأله العجوز:

- هل تعرفهم؟
- لا، ولكن هل التقى عفوا ثلاثة أشخاص لا صلة لهم بالبحر بهذه الطريقة، بل إن أبي رحمه الله كان يعمل ذات يوم في البحر.

صدرت همهمات جديدة دامت لحظات قطعها رجل الأربعين قائلا:

- يبدو أن الأمر أكثر غرابة مما نتصور.
- هل اكتشفت شيئا؟
- لا، ليس بعد، لكن أبي كان يعمل في البحر منذ أكثر من عشرة سنوات.
- أبوك أنت؟
- أجل

سأل العجوز شاب الثلاثين:

- وأبوك أنت كان يعمل في البحر منذ خمس سنوات؟
- أجل

وجه حديثه إلى رجل الخمسين:

- وأنت أيضا؟
- وأنا أيضا.

أشار إلى الرجل الذى كان يجلس بجانبه

- وأنت أيضا يا سيدى؟
- لا أستطيع أن أقول شيئا فهذا سيزيد الأمر غرابة، فأبي كان يعمل يوما في البحر ضمن أعمال كثيرة اشتغل بها.
- في البحر أيضا؟
- أجل، منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما.

أغمض الرجل عينيه واسترخى على المقعد وهو يقول:

- لا.. المشكلة أكثر تعقيدا مما نعتقد .

سأل أحدهم.

- ماذا؟

قال الرجل وهو يلوح بيديه في الهواء:

- أبي كان يعمل في البحر منذ خمسين عاما، شئ غريب..

فتح عينيه ونظر إلى الجالسين حوله واعتدل ثانية على مقعده وتكلم بثقة:

- يبدو أن الموضوع أكثر غرابة مما تعتقد يا سيدى..

أشار إلى رجل الأربعين الذي مط شفتيه ولم يتكلم..

قال الرجل:

- الموضوع لا يقف عند آبائنا إن عملوا في البحر أو أن أحدنا شبيه بالآخر، أو إن كلنا متشابهون.. الموضوع أكثر تعقيدا.

قال الفتى:

- يخلق من الشبه أربعين.

ابتسم العجوز وقال:

- لا يا صغيرى، هذا الكلام بلا معنى، نحن جميعا متقاربون في نقطة واحدة، نحن ننحدر من أصل واحد، جذرنا واحد لكنه لم يفرع فرعا واحدا فقط، ولا كثير من الفروع الباقية، نحن السبعة نعبر عن شئ واحد.

- بالرغم من أننا جميعا لسنا هذا الشئ، وأننا جميعا ننتمى إلى هذا الأصل وهو ليس أصل تاريخى أو بيولوجى ولكنه أكثر غراب مما نتصور، نحن السبعة غير متشابهين وغير مختلفين، ويبدو أن التقارير التى

كتبناها كانت تختلف عن بعضها، بالرغم أننى لم أقرأها – وهذا شئ معقول جدا.

- إننى اتساءل، لماذا نحن سبعة، فلماذا لا نكون عشرا مثلا أو مائة أو ألف أو لا نهاية من الأفراد.

ولماذا لا نكون هؤلاء اللا منتهى، نسخة متطورة أو أولية من شئ واحد، ما زلت أتساءل، لماذا لا نكون جميعا شخصا واحدا في سبعة أشخاص، بل في لا منتهى من الأشخاص، شخص يتجدد دائما فيصبح مع كل شعاع شمس شيئا جديدا يختلف عن الشئ الذى خلفه قبل سقوط الشعاع، وهو بالفعل أصبح جديدا نتيجة لتفاعل طاقة الشعاع معه.

نحن لسنا سبعة، ولسنا واحدا، ولسنا لا منتهى.

أنا ما زلت أتساءل: لماذا نحن لسنا واحدا.. ولسنا سبعة، ولسنا لا منتهى، ترى، لماذا..!

بعد القراءة

كتبت هذه الرواية في بداية السبعينيات

كنت آنذاك في السنة النهائية لدراستى بكلية الزراعة بجامعة الإسكندرية، يملؤنى الطموح، والأفكار الجديدة، وأبحث عن معنى لوجودى في الحياة، وأرى الأشياء تتسرب من حولى وتتحول إلى صيرورة..

وسعيت إلى تجريب هذا الشكل غير المألوف في الكتابة، وبعد عشرة سنوات من تأليفها نشرتها كأولى رواياتى، وكانت أول سطور في طريق ملئ بالمتاهات.

ومنذ أشهر، أبلغتنى إحدى الدارسات أنها تعد رسالتها الجامعية حول أعمالى القصصية، واكتشفت أن روايتى الأولى التى طبعتها على الاستنسل في طبعة محدودة، غير متوفرة، وبعد العثور عليها، رحت أقرأها بدهشة، حيث اكتشفت أننى كتبت مسيرة حياتى على الورق قبل أن اعيش منها نصف قرن قادم على الأقل.

الكاتب قد يسجل رحلته وهو على مشارف النهاية، أما هذه الرواية فهى أقرب إلى رحلتى التى كتبتها قبل أن أحياها، وفيها قدمت خلاصة قدرتى على الكتابة، قبل أن أصدر مئات الكتب والموسوعات في

مجالات متعددة، فقد اتبعت عدة أساليب في الكتابة لم تقع عيناى على مثيل لها طوال رحلتى، لذا تبدو كأنها مكتوبة اليوم، ومنها على سبيل المثال الحوار الروائى المتراكب في الفصل الخامس، فنحن نكتب الحوار كأننا ننطق به في غرف مفرغة الهواء، لا ننطق أو نسمع سواه..

وعنوان الرواية "لماذا!" ليس مقرونا بعلامة الاستفهام، بل بعلامة التعجب مما يجعلنى أقرن الرواية بشعارها المطبوع على غلاف طبعة الاستنسل المحدودة:

" أنا لا أسأل أحدًا.. فكلنا لا يعرف الجواب"